أعمال الأستاذ الدكتور ناصر الدين سعيدوني

القول الأوسط

في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط

الشيخ أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي

طبعة ثانية مراجعة ومنقحة

تحقيق وتقديم

الأستاذ الدكتور
ناصر الدين سعيدوني



القول الأوسط

في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط

الشيخ أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي

طبعة ثانية مراجعة ومنقحة

تحقيق وتقديم

الأستاذ الدكتور

ناصر الدين سعيدوني



الإيداع القانوني: 1615 ـ 2013

الردمك: 7 ـ 94 ـ 988 ـ 9947 ـ 978

البصائر
للنشر والتوزيع. الجزائر

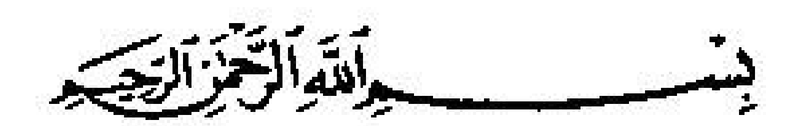
حي الدوزي 3 رقم 411 باب الزوار ـ الجزائر

هاتف: 20 45 20 021 / 334 860 0554

البريد الإلكتروني : darelbassair@yahoo.fr

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخمسين لعيد الاستقلال




بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الثانية

لقد مضى وقت طويل منذ أن نشرتُ كتاب "القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط" للحاج أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي (توفي بعد 1301 هـ/ 1883 م)، الذي صدر عن دار الغرب الإسلامي (بيروت، 1991). وقد تضمنت تلك الطبعة أخطاء وهفوات؛ لكون التحقيق تم آنذاك بصفة مستعجلة بدون مراجعة، مما تطلب تصحيحه وإثراءه بالتعليقات والهوامش الضرورية وموافقة الأعوام الهجرية بالسنوات الميلادية في هذه الطبعة الجديدة.

لم يحظ كتاب "القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط" بما يستحقه من اهتمام الباحثين وعناية الدارسين، رغم أهمية مادته واختلاف نظرته لبعض القضايا، خاصة فيما يتعلق بالنتائج المترتبة عن ثورات القرن التاسع عشر بالجزائر، فقد رأى فيها الشقراني عاملا سلبيا مضرا بشؤون الناس تسبب في التوسع الاستعماري داخل الجزائر نظرا لعدم قدرة الجزائريين المادية على مواجهة الفرنسيين المتفوقين في العدة والعدد والتنظيم.

ولعل اختلال موازين القوى آنذاك هو الذي جعل المؤلف يُبدي نقمته على بعض الثائرين الذين لم يأخذوا ظروف العصر في الاعتبار مثل الثائر الشيخ بوعمامة حسب رأيه، وهذا ما جعله يحبذ مواقف المتصوفة من أصحاب الطرق الدينية الذين امتنعوا عن الدخول في مواجهة مسلحة مع الفرنسيين. وهذا ما لا نقر عليه صاحب المخطوط؛ لأنه يخدم مصالح الاستعمار الفرنسي، ويري الأمور بنظرة ذاتية لا تعبر

عن ضمير الشعب الجزائري ولكون مقاومة الجزائريين للاستعمار الفرنسي تظل في حكم التاريخ حقا مشروعا وواجبا مفروضا. وهذ ا ما جعل أ.د. أبو القاسم سعد الله يصدر حكما قاسيا عليه في تاريخ الجزائر الثقافي (ج 7 ص 365) عندما وصف كتاب القول الأوسط بأنه يحمل عنوانا كبيرا يوحي بالشمول، ولكنه في الواقع كتاب صغير وأخبار محدودة... ومواقف مضطربة إزاء السلطة الفرنسية والثوار ..."

ورغم ما قد يُؤخذ على المؤلف في هذا الجانب، فإن حاجة المؤرخ إلى الوثيقة التاريخية، وإلى التعرف على الرأي المخالف للرأي المتعارف عليه تظل هدفا يسعى إليه، ولو شذّ عن الإجماع، وابتعد عن الصواب.

وبعيدا عن كل هذه الاعتبارات فإن كتاب "القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط" يظل بالنسبة للباحث مصدراً مهماً له قيمته الوثائقية في استكمال رصيد المكتبة التاريخية الجزائرية من الكتابات المحلية، وفي إثراء وتنويع المادة الخبرية انطلاقا مما كتبه الجزائريون، و ليس فقط بما سجله الفرنسيون كما هو السائد في أغلب ما كتب في تاريخ الجزائر.

هذا وأتمنى أن تجد هذه الطبعة الثانية من كتاب القول الأوسط مكانها في المكتبة التاريخية الجزائرية، مع العلم بأنها ما كانت لترى النور لولا أريحية الأستاذ المحقق محمد بن عبد الكريم، ومساعدة الأستاذ الباحث د. معاوية سعيدوني، وتشجيع رفيقة العمر أم طارق، ورعاية القائمين على النشر بدار البصائر ، جزاهم الله كلهم خير الجزاء، ولهم مني الشكر والامتنان والتقدير.

أ.د. ناصر الدين سعيدوني

الجزائر، في 7 جويلية (يوليو) 2012

تقديم الطبعة الأولى

في الوقت الذي انصب فيه الاهتمام على إحياء تراثنا الجزائري، وبعث ما اندثر من مصادره رأيت من الواجب أن أقدم هذا المخطوط للقارئ الكريم عله يجد فيه بعض ما يهمه، ولا سيما أن العديد من فقراته يتصل مباشرة بأحداث مهمة تعود إلى الفترة الأولى للاحتلال.

هذا ونحن إذ نأمل أن يكون هذا العمل المتواضع لبنة في الجهد الرامي إلى مراجعة أحداث التاريخ الجزائري من خلال مصادر معاصرة ووثائق محلية، لا يسعنا إلاّ أن نتوجه بالشكر والعرفان بالجميل للأستاذ الدكتور/ محمد بن عبد الكريم الذي مكننا من هذا المخطوط وشجعنا على تحقيقه، فلولا أياديه البيضاء وأريحيته الأخوية لما أنجزنا هذا العمل، والشيء كما يقال لا يستغرب من معدنه. فالأستاذ له من المساهمات القيمة والجهد المحمود في هذا المجال ما يشهد له بالفضل، فهو قد أثرى المكتبة الجزائرية بالعديد من الدراسات والمخطوطات التي أنجزها ونشرها وحققها.

أ.د. ناصر الدين سعيدوني

الجزائر، في فاتح نوفمبر 1986

التعريف بالمخطوط

هذا المخطوط الذي نقدمه للقارئ يشتمل على تسع وعشرين صفحة ذات الحجم الكبير كتبت في أغلبها بخط مغربي واضح مزين في بعض فقراته باللون الأحمر، وكما هو منصوص عليه في الصفحة الأولى فإن هذا المخطوط قد نقله أحد النساخ عن نسخة أصلية لمؤلفه الحاج أحمد بن عبد الرحمن البوشيخي الشقراني الذي لا نعرف عنه شيئاً ذا أهمية. فمع بحثنا في الكتب التاريخية ورجوعنا إلى بعض الأشخاص الذين نظن أن لهم معلومات عنه مثل الشيخ المهدي البوعبدلي، إلا أننا لم نتمكن من إيضاح جوانب حياته وإبراز شخصيته وتحديد نوعية ثقافته، إذ كل ما ذكر عنه ـ حسب علمنا ـ لا يتعدى فقرتين أوردهما الشيخ محمد بن يوسف الزياني صاحب دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، إحداهُما في معرض حديثه عمن أخذ وهران من أزديجة وعجيسة، فقال ما نصه « ثم اختلف في الذي أخذ وهران من أيديهم ـ يقصد أزديجة وعجيسة ـ فقال في عجائب الأسفار أخذها من أيديهم دواس بن صولات الكتامي عامل الشيعة. واستعمل عليها محمد بن عون، فأنت ترى كلام الشيخ الحافظ أبي راس كيف اختلف، وبالتالي قال شيخنا العلامة السيد الحاج أحمد بن عبد الرحمن الشقراني في كتابه "القول الأوسط" » ، والأخرى

عند ذكره لأنهار بلاد المغرب نقلاً عن صاحب بهجة الناظرين وآية المستدلين[1]، وكذلك فقرات نقلها عنه الآغا بن عودة المزاري في كتابه طلوع سعد السعود في معرض كلامه من الأمير عبد القادر[2].

إلا أن ما يستنتج مما ورد ضمن المخطوط أن الحاج أحمد بن عبد الرحمن الراشدي ينسب إلى قبيلة بني شقران التي تقطن المنطقة بين مستغانم وغريس، وأنه عاش فترة من حياته بمدينة معسكر، وذلك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي، وتأثر بالأحداث التي شهدتها البلاد الجزائرية في تلك الفترة، والتي تميزت خاصة بالثورات المتتالية على المستعمرين الفرنسيين، وقد ذكر عن نفسه أثناء حديثه عن فيضان وادي الحمام عام 1253 (1837) أنه كان آنذاك طالباً يتلقى العلم بإحدى مدارس مدينة معسكر هذه المدينة التي كانت لا تزال تحتفظ بمركزها المميز كإحدى حواضر العلم والثقافة بالغرب الجزائري.

أما فيما يتعلق بتحديد تاريخ تأليفه فإن الناسخ لم يذكره رغم أنه كان حريصاً على ذكر اسم الكتاب ومؤلفه. ومع ذلك فإننا نرجح أن يكون في نهاية التسعينات من القرن التاسع عشر وبدليل أنه يشير في مخطوطه إلى وفاة الأمير عبد القادر (1300هـ/ 1883م).

(1) انظر: محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران تقديم وتعليق الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر، 1979، ص ص 76 و135.

(2) الآغا بن عودة: المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود. تحقيق ونشر يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ج2، ص 104.

أما من حيث مضمون المخطوط فقد تعرض الشقراني لأحداث متعددة وقضايا متفرقة منها ما عاصره، ومنها ما نقله عن غيره من المؤرخين.

فيبدأ بالحديث عن ثورة بوعمامة وإن كان في الحقيقة لا يسميها ثورة ولا يعترف بالكفاح والنضال الذي خاضه هذا الثائر ضد الغزاة المحتلين لموقف خاص به لا نوافقه عليه ولا نقر ما أتى به في هذا الشأن - إذ هو يعتبر حركة بوعمامة عملاً شخصياً صادراً عن الطمع في السيادة والرئاسة، بل ذهب في تهجمه على بوعمامة إلى أبعد من ذلك إذ لم يتورع عن وصْفه بالجهل والسفه ويرى أن حرقه لأعدائه خروج عن تعاليم الإسلام ويستشهد على صحة حكمه هذا بقائمة طويلة من الأحداث والأقوال من التاريخ الإسلامي، كما يرى أن حركة بوعمامة كانت سببا في زيادة نفوذ الفرنسيين وبسط أيديهم على مناطق أخرى بالجنوب الصحراوي الجزائري، وأن المواطنين قد عانوا من رد فعل المحتلين الذين انتقموا من الأهالي، وأصدروا قوانين جائرة في حقهم مستنتجاً من ذلك أن هذه الثورة كان ضررها أكثر من نفعها. وفي معرض حديثه عن ذلك يكثر من الاستطراد. ويتعرض لكثير من القضايا، فيحدثنا عن حقيقة الرؤيا في المنام، والفرق بين الرؤيا الصالحة وغيرها مستشهداً في ذلك ببعض الأحاديث النبوية الشريفة.

هذا ويخلص في الأخير إلى أن بوعمامة لاحق له في زعامة أو سيادة ولن تصلح إمامة دون بيعة، ثم يؤكد على أن الوقوف في وجه القوة لا يجدي نفعاً ويستدل على ذلك بفشل بعض الانتفاضات وحركات التمرد التي قادها كل من الشريف الدرقاوي، والشيخ التجيني، ويوسف الخويدي، وكذلك عبد الرحمن

الطوطني الدرقاوي وولد سيدي حمزة بن الشيخ، والغريب في الأمر هنا أن صاحب المخطوط يدعو صراحة إلى الاستسلام للأمر الواقع، وانتظار الفرج من الله القادر على تغيير الأحوال وتبديل الأوضاع ما دامت الأيام لا تدوم على حال واحدة. وينقله هذا الاستطراد إلى الحديث عن إرم. وبعدها إلى ذكر الفترة التي حكم فيها الأتراك الجزائر ويشير كذلك إلى تسلط الفرنسيين على البلاد فيما بعد.

هذا ومن المواضيع الهامة التي يتحدث عنها الكاتب كفاح الأمير عبد القادر، فبعد أن نوه بهذه الشخصية العظيمة يذكر كيف تمت البيعة له وكيف تمكن من الوقوف في وجه الفرنسيين مشيراً إلى بعض المعارك التي خاضها الأمير ضد المحتلين، مثل المعركة التي وقعت في المكان المسمى المقيتلة والمعركة التي دارت رحاها بناحية سيق، واضطر إثرها الفرنسيون إلى التراجع إلى وهران وما أعقب ذلك من تحركات الأمير من سيق إلى مستغانم، هذا ويرى المؤلف أن قرار الأمير بوقف الحرب كان عين الحكمة والصواب لأن الظروف الداخلية والخارجية قد اضطرته إلى ذلك.

بعد هذا ينتقل المؤلف إلى ذكر بعض الكوارث الطبيعية التي وقعت بالناحية الوهرانية من مجاعات وأوبئة وفيضانات وما خلفته هذه الكوارث من نتائج مؤسفة كان لها أثرها العميق على السكان اقتصادياً واجتماعياً.

وفي الفقرات التي تلي ذلك يستعرض أهم القبائل التي استقرت بأقاليم المغرب وتوطنت بلاد العرب. كما يذكر أهم المدن ببلاد المغرب نقلاً عن مصادر تاريخية معروفة كابن خلدون وأبي رأس الناصري وابن أبي زرع وغيرهم. هذا ويخص مدينة وهران بعدة فقرات يتحدث فيها عن تأسيسها ويشير في ذلك إلى

الأعمال التي قام بها يوسف بن تاشفين حاكم المرابطين وما عرف عنه من مآثر وبطولات أكسبته الذكر الحسن في كل البلاد الإسلامية، كما يحدثنا صاحب المخطوط عن دولة الموحدين وزعيمها المهدي بن تومرت ومؤسسها عبد المؤمن بن علي، بعد ذلك يعرج على ذكر الزيانيين وينقل لنا صورة أخرى عن رجل عرف بتقواه واشتهر بكرامته وهو الشيخ محمد المغراوي المشهور بسيدي الهواري دفين وهران، ثم يعود مرة أخرى للحديث عن وهران وما تعرضت له من غزو متكرر من طرف الإسبان وقد ذكر في أثناء ذلك بعض تحصيناتها مثل برج المرسى وبرج مرجاجو وبرج رأس العين والبرج الأحمر، ويتحدث أيضاً عن خيانة اليهود وتمكينهم الإسبان من احتلال وهران وكذلك عن الوسائل الدنيئة التي انتهجوها لفرض سيطرتهم على البلاد الجزائرية وما كانوا يقومون به من تقتيل وانتهاك حرمات مما أشاع الهلع والفزع بين القبائل، ويشيد المؤلف بفضل الأتراك في المساعدة على وضع حد لهذه الهجمات الصليبية.

ومن وهران ينتقل إلى الحديث عن المغرب العربي وحدود كل من المغرب الأقصى والجزائر وتونس وعاصمة كل منها وأهم الأنهار التي توجد بكل قطر من بلاد المغرب.

هذا وقد أشار صاحب المخطوط إلى تاريخ مدينة تلمسان وكيف تم تأسيسها ومن تولى حكمها. وهناك مواضيع متفرقة كالكلام عن البارود والمنجنيق وأول من ضرب به وذكر كسيلة وانهزامه وكذلك قصة الصحابي الجليل عقبة بن نافع القهري ومسجده. ويختتم المخطوط بذكر أصل كل من الفرنج والإسبان وأصل هذه التسمية.

فإذا تجاوزنا المادة التاريخية التي يتضمنها المخطوط إلى النظر في ما يتصل

باللغة والأسلوب، فالمخطوط يتميز خاصة بطريقة السرد التقليدية التي اتصف بها أسلوب كتاب النصف الأول من القرن الماضي. فهو مع ما يلمس من سلاسة اللغة واستقامة الأسلوب في أغلب فقراته إلا أنه لا يخلو في بعض الأحيان من ضعف في اللغة وركاكة في التعبير فضلاً عن استعماله بعض الكلمات الدخيلة الشائعة على اللسان العامي مثل لفظتي البابورات، السبنيول وغيرهما.

وعلى كل فإن أسلوب صاحب المخطوط يعكس لغة عصره وثقافة بيئته حيث يصبح استعمال المحسنات البديعية من متطلبات الأسلوب البليغ ولو كان في ذلك تكلف، وحيث يكون السجع أداة تعبير ولو أدت كما هو الحال إلى الالتجاء إلى الترادف دون هدف بلاغي أكيد أو حشو العبارات بمفردات لا يتطلبها المعنى المراد.

أما من حيث المستوى الثقافي والمعارف العلمية فإنه حسب ما يظهر لنا من خلال لغته وما أورده من أحداث وما عرضه من أفكار أن له ثروة أدبية واسعة وثقافة دينية أصلية واطلاعاً واسعاً على كتب التاريخ المعروفة آنذاك، وهذا ما تؤكده لنا اقتباساته الكثيرة من القرآن الكريم واستشهاداته المتكررة بالأحاديث النبوية الشريفة وإيراده لبعض الأبيات الشعرية وذكره لسير العديد من رجالات السلف الصالح.

أما ما يتصل بترتيب المادة التاريخية والخطة المتبعة في ذلك فقد حددها صاحب المخطوط عندما أوضح دواعي تأليفه بقوله: «إني لما رأيت مغربنا الأوسط قد سكنته أمم وانقضت وملكتهُ وانقرضت، وثارت به ثوار جسيمة، أردت بعون الله أن أجمع فيه ما قيدته وأنقل ما وجدته والواقع الذي شاهدته» كما بين أيضاً أنه فصل فيما جمعه من معلومات وما سجله من أحداث الترتيب

التصاعدي بدءاً بالوقائع التي عاشها وانتهاءً بالأحداث التي عرفتها بلاد الجزائر في الفترة الإسلامية، وقد عبر عن ذلك بقوله: « ماشياً فيه القهقرا سالكاً فيه مهيم السادات الفقراء »، أما ما لم يشر إليه الكاتب في هذا الصدد فهو إغفاله تقسيم المادة إلى أبواب أو فصول أو ترتيب الأحداث تحت عناوين خاصة بها، وقد اجتهدنا في ذلك تسهيلاً للقارئ فوضعنا فهارس لهذا المخطوط وقائمة بأهم المواضع التي تطرق إليها وذلك حتى يسهل الرجوع إليها والإنتفاع بها.

أما مدى التزامه بالموضوعية في عرض الأحداث و سرد الوقائع و تقييم المواقف. فإننا نلاحظ أنه قد جانب الموضوعية في بعض القضايا بل اتصف في بعض المواقف بالذاتية فاتخذ موقفا متحيزا ينمّ عن العداء الشخصي من الثائربوعمامة فتحامل عليه بشدة و نعته بأحط الصفات بل حاول أن يعطي للقارئ عنه صورة مشوهة لا تتماشى ومواصفات هذه الشخصية الوطنية و لا تنطبق على الحركة التي قادها ضد الاستعمار الفرنسي في الجنوب الوهراني. كما تبرز انعدام النظرة الموضوعية للأحداث لدى صاحب المخطوط في ذلك الموقف المتخاذل الذي اتخذه من الاستعمار الفرنسي، حيث دعا بصراحة إلى الرضا بالأمر الواقع والصبر على المكروه وتحمل الأذى، ما دام الانتصار على الفرنسيين في نظره غير ممكن، وهو في ذلك لا يتورع عن إبداء إعجابه بهم ونعتهم بحسن التدبير والشدة في الحرب، ووصفهم بالحزم والعزم، مشيداً بذلك بمظاهر التقدم التي أحرزوها في مختلف ميادين الحياة.

على أن هذا التحامل على بوعمامة والإشادة بالفرنسيين قد نجد له تفسيراً في تخوف صاحب المخطوط من النتائج التي قد تسفر عنها أية ثورة في المستقبل ضد الفرنسيين لا سيما أنه يشير في المخطوط، إلى مدى الأضرار التي ألحقها الجيش الفرنسي بالسكان إثر قمعهم لثورة بوعمامة مثل إصدار القوانين التعسفية

والاستحواذ على الأراضي وإخضاع المناطق الواقعة بجنوب الغرب الجزائري السهبية والصحراوية منها، وهذا ما يؤكده قوله: "إنما جلب المصالح والمنافع لأعداء الله بالزيادة في مملكتهم وتمهيد أهل القبلة بتمامها وبدخول أهل القرى والصحاري في طاعتهم تحت ذمتهم ومملكتهم".

ولعل ما يشفع لصاحب المخطوط في موقفه من ثورة بوعمامة هو إشادته بشخصية الأمير عبد القادر وتنويهه بخصاله الحميدة وببطولاته في الحرب وحسن رأيه وتدبيره في أمور الدولة وكأنه بذلك يرى بأن الأمير هو الشخصية الوحيدة التي كان بإمكانها أن تقف في مواجهة الاستعمار وتتصدى لمشاريعه وبالتالي أصبح أي عمل بعده في نظره لا يجدي نفعاً ولا يسفر عن نتيجة إيجابية في صالح المسلمين.

أما من حيث قيمة المخطوط فيتضح لنا مما سبق أن هذا المخطوط ينقسم من حيث محتواه إلى قسمين، قسم لم يأت فيه مؤلفه بجديد، فهو عبارة عن نقل أو اقتباس عمن سبقه من المؤرخين، وفي مقدمتهم أبي رأس الناصري، وعبد الرحمن الجامعي، وقسم سجل فيه بعض مشاهدته وعرض فيه بعض آرائه فيما يخص القضايا التي عاصرها والأحداث التي عاشها ـ وهذا القسم في نظرنا يكسب المخطوط أهمية تاريخية، ويصبغ عليه صفة الجدة والطرافة، إذ هو حافل بذكر العديد من الشخصيات التي ساهمت في أحداث الفترة الأولى للاحتلال والتي كان لصاحب المخطوط حكم خاص عليها، كما أن قيمة المخطوط تكمن أيضا في بعض الأحداث الاقتصادية التي أشار إليها عندما تعرض لبعض آثار الكوارث الطبيعية وهو في ذلك يماثل إلى حد ما محمد الصالح العنتري الذي اهتم بنفس الجوانب فيما يخص الناحية الشرقية، هذا وتجدر الإشارة إلى أن ما ورد من آراء في شأن بعض الشخصيات التاريخية لا يمكن أن يفهم إلا إذا أخذنا

بعين الاعتبار الظروف الخاصة التي عاشها، وفي مقدمتها الضغوط الاستعمارية التي تعرض إليها أو تأثر بها. فكما هو معمول به منهجياً لا يمكن الحكم على المؤلف إلاّ من خلال عصره. ولا يمكن تقييمه إلا بالرجوع إلى المحيط الذي عاش فيه. وعلى كل فإن ما جاء في هذا المخطوط رغم ما قد يؤخذ عليه لا سيما ما يتعلق بثورة بوعامة فهو بلا شك، إضافة جديدة لمصادرنا التاريخية وإثراء معتبر لتراثنا الثقافي، فبدون تنوع للمادة التاريخية واختلاف للآراء في شأن القضايا والأحداث لا يمكن أن تفهم إلاّ بالمقارنة وتطبيق المنهج التاريخي الذي يسمح بالتأكد من صحة الأحداث.

نص المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلي الله وسلم علي سيدنا محمد وآله وصحبه

كتاب القول الأوسط، في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط للواثق بالمنان القدوة العلامة سيدي الحاج أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، تغمده الله برحمته وأسكنه أعلا الجنان.

الحمد لله الذي جعل الدنيا سجن المؤمن وأيامها متداولة بين الناس، ليزيد المؤمن عندها رغبة ورهبة وإدامة للعمل الصالح فيكون من أفضل أمة طيبة الأنفاس، وإنها عارية مردودة وسكانها مرتحل إلى دار البقاء ولايجد إلا ما قدمه من صالح العمل حالة حلوله بالأرماس، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين والمرسلين المبعوث إلى كافة الخلق دون الناس الذى تكون منه جميع الكون وكان للأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء من نوره الاقتباس.

أما بعد فيقول المفتقر لرحمة الرحمن الرحيم، السائل منه العفو والرضى والرضوان، أفقر العبيد أحمد بن عبد الرحمن، تغمده الله برحمته وأسكنه في أعلا الجنان، أني لما رأيت مغربنا الاوسط قد سكنته أمم وانقرضت وملكته وانقرضت، وثارت به ثوار جسيمة وظهرت فيه حوادث جسيمة، أردت، بعون الله، أن أجمع فيه ما قيدته ونقل ما وجدته، والواقع الذي شاهدته. وسميت هذا التقييد بالقول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط، ماشياً فيه القهقرا، سالكاً فيه مهيم السادات الفقرا مستعيناً على اتمامه والنفع به من المالك الوهاب، فهو الذي يهدي من يشاء لسبل الرشد والصواب ومنه أسأل بلوغ المأمول، بعد الاعتماد عليه فأقول:

1. ذكر انتفاضة بوعمامة:

اعلم أن في عام ثمان وتسعين ومائتين وألف[1] ثار رجل من أولاد سيدي الشيخ بالقبلة يقال له أبو عمامة[2] على الفرنسيين يريد قصد دولتهم الراسخة ومملكتهم الراسية الراتخة، ويكون أحق بها وأهلها. هذا مراده، ومن المعلوم أن المراد لا يندفع به الإيراد وما ذلك على الله بعزيز لو شاء وما شاء وكان في أول ظهوره يتردد في الصحراء ويتغلب فيها من غير قليل فائدة فضلاً عن كثيرها وقد ظفر ببعض فقراء السبنيول وضعفائهم وهم أجراء على خدمة الحلفة فأباح لنفسه وأتباعه قتلهم بالحرق والنكال عقوبة لهم، بعد الظفر بهم والقدرة عليهم، وهذا دليل على جهله وعدم معرفته إذ كيف يفعل ما دليل عليه من الكتاب والسنة ويأمر به لأن المثلة والحرق للعدو بعد الظفر به حرام لأنه لا يعاقب أحد أحداً بالنار ويجازي بها إلا الله سبحانه.

وفي مثل ذلك قال الشاعر:

نُبِّئتهم عذبوا بالنار جارهم   وهل يعذب إلا الله بالنار

---

(1) 1298هـ/ 1881م.

(2) بوعمامة قائد الثورة الشهيرة في الجنوب الغربي الجزائري، وهو محمد بن العربي بن الشيخ بن الحرمة، الشهير ببوعمامة ولد حوالي 1838 وتوفي سنة 1908. وقد تصدى للزحف الاستعماري بالجنوب الوهراني وكبد الجيش الفرنسي خسائر فادحة كما هو مسجل في كتب التاريخ، إلا أن صاحب المخطوط لاعتبارات ظرفية وميول شخصية حاول الحط من شأن هذه ثورة بوعمامة والتشهير بصاحبها، قد فضلنا نشر النص كما هو دون تحوير محافظة على النص الأصلي كما ورد في المخطوط رغم ما يؤخذ عليه من تحيز ورأي مخالف للواقع التاريخي.

أي وما يعذب بالنار إلا الله، وقد استمرت خلافة قريش بالمشرق بعد الخلفاء الأربعة. فملك بنو أمية ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، والعباسيون ببغداد خمسمائة سنة وخمس وعشرون سنة، وبمصر من سنة ثمان وخمسين من القرن السابع إلى سنة ثلاث وعشرين من العاشر وبلغت مدة بني مرين مائتين وسبعاً وعشرين سنة ومدة بني زيان ثلاثمائة سنة وستة وعشرين سنة، بإدخال مدة بني مرين ومدة يوسف وبنيه تسعون سنة، والموحدون بالمصامدة سبع وعشرون سنة، وبمراكش مائة سنة وثمان وعشرون سنة، وبإفريقيا ثلاثمائة وثمانون سنة.

فما وقعنا على أحد من هؤلاء الملوك حرق عبداً من عباد الله بالنار، وما وقع من عبد المؤمن بن علي[1] الذي استخلفه المهدي بن تاشفين الصنهاجي فهو بقي منه [كذا] وتحامل لا مستند له شرعي في ذلك وقضيتها أن تاشفين قام عليه عبد المؤمن بتلمسان وضايقه بها ففر لوهران، وحاصره عبد المؤمن بها، ولما طال عليه الحصار وعلم أنه لا طاقة له على دفعه ودع خواصه وخرج ليلة عيد الفطر سنة تسع وثلاثين وخمسمائة سنة إلى هيدور وهو جبل وهران على فرس عتيق وحمله من بعض الأخاديد فتردى به فمات ومن الغد وجد ميتاً فصلب على جذع نخل وتفرق أصحابه في غيظ نهر وهران فحرقه الموحدون، ومن فر قتل وتمكن عبد المؤمن بها.

---

(1) عبد المؤمن بن علي ينتمي إلى قبيلة كومية التي كانت تقطن بناحية تاجرة (طرارة)، بين تلمسان وأرشكول بالقرب من ندرومة، ولد حوالي سنة 497هـ/ 1091م. وأنظم كما هو معروف إلى حركة المهدي بن تومرت، وتولى إرساء دعائم الدولة الموحدية بعد وفاة هذا الأخير 524هـ/ 1129م، ويعتبر عبد المؤمن المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين (524 ـ 667هـ/ 1129/ 1268). وقد تم على يده طرد المسيحيين من سواحل المغرب وتوحيد بلاد المغرب من برقة إلى السوس الأقصى.

وأبو عمامة هذا قد سولت له نفسه الإمارة بالسوء أن الدولة الفرنسوية ستخرب على يده ويكون هو الخليفة على زعمه ويفتح قواعد البلدان، ويسقي أعداء الله كؤوس الذل والأهوان فما يكون منه ذلك وما كان (بياض) ما يلقى عليه ويتخيل له في المنام من الأضغاث الأحلام.

2. حقيقة الرؤيا الصالحة:

وقد حذر عليه السلام من ذلك قائلاً ـ المؤمن لا تغره أحلامه بخلاف الرؤيا فهي حق لقوله رؤيا المومن حق أي في الغالب والمؤمنة كذلك والمراد غالب رؤياه وإلا فقد تكون رؤياه أضغاث أحلام أي أخلاط أحلام فلا يصح تأويلها لاختلاطها وقوله لم يبق بعد النبوة إلا المبشرات، فقيل وما المبشرات يا رسول الله؟ قال الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح يراها أو ترى له جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. واختلف في حقيقتها قيل خواطر واعتقادات وقيل هي أوهام لا يصيبها آفات النوم، وأما إذا استغرقه النوم فلا يرى شيئاً، وقيل هي إدراك يدركه جزء من الإنسان لا يصيبه آفات النوم. وقوله الصالحة قيل الصادقة المبشرة وقيل التي لا تحزين فيها ولا تخييل، والتي فيها البشارة من الله والتي فيها التحزين من الشيطان وقوله من الرجل الصالح فالمراد به الممتثل للأوامر المجتنب للنواهي وقوله أيضاً جزءاً من ستة وأربعين جزء من النبؤة، وجد ذلك على ما قيل إن زمان الوحي ثلاث وعشرون سنة، وأول ما ابتدئ به ﷺ بالرؤية الصالحة ومدتها ستة أشهر ونسبة ذلك إلى سائر المدة المذكورة جزء من ستة وأربعين، وأظهر ما قيل في كون الرؤى جزءاً من ستة وأربعين من أجزاء النبؤة أي جزء من أجزاء علم النبؤة لأنه يعلم بها الغيوب ويطلع بها على بعض

المغيبات. ولا شك أن علم المغيبات من علم النبوة، ولذلك قال الإمام مالك ـ رضي الله عليه ـ لما سئل أيعبرُ الرؤيا كل أحد، أبنبوة الله تلعبون.

ثم إنه صار يشن الغارات على من لم يتبعه من المسلمين وأباح فيهم القتل والسبي وأخذ الأموال عقوبة لهم على عدم بيعته ونصرته، وعلى امتناعهم من الدخول في ذلته وورطته، وظن بهم الظنون التي حاشاهم منها إذ ما منهم من أتباعه وصحبته والدخول في ولايته وحبته، إلا وفي علمهم أنه لا يدوم أمره وسيفرق جمعه وشمله ونفره، ويفر ويتركهم في محالم محابيس فحينئذ يلحقهم الضرر من جهة الفرانسيس وقراين الأحوال شاهدة بذلك ودالة على ما هنالك، ومن المعلوم المقرر والمنقول المحرر عند أئمة النظر، أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح عند تعارضهما ومن نظر وتأمل ظهر له أن الامتناع من الدخول فيما ادعاه وقصده وابتدعه، والالتفات والإعراض عن ما وارده واخترعه، أمر واجب بالاشتهار، لما يلزم عليه من حصول المهالك والأضرار، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1]. وقد وقع في هذا الضرر وحل فيه كثيرمن القبائل المتبعة لهذا السفيه، وناهيك في سكرته وغمرته الحالية، إنه لم ينظر إلى سير الملوك الماضية والدول الخالية، وشدة حروبها وإرفاقها، وضبط حروبها وأرزاقها.

ولو تأمل ذلك لاستراح وأراح من الاختباط[2]، ولم يدخل في غياهب الفتن والاضطراب والحيرة والتخبط، ولو علم الناس منه الكفاية والنجاة والمصابرة والثبات، لأذعنوا له كلهم ووقروه، واحترموا بحرمته وقاتلوا بقتاله

(1) قرآن كريم، [البقرة: 195].

(2) من التخبط والاضطراب.

وعزوه ونصروه، إذ يجب عليهم نصب إمام عدل، وفرض عليهم اتباعه في القول والفعل، ليكف الظالم وينصر المظلوم، ويجمع شملهم بالخصوص والعموم مستوفية شروطه وضوابطه، منتفية موانعه وقوادمه ومدعمة روابطه مقبول حاله وسريرته محمود عاقبته وسيرته رأفة ورحمة، لأهل آل الفضل والرشاد، وزجر وردع لأهل الظلم والفساد ينصرونه بأرواحهم وأكبادهم وأرواحهم ويطيعون بأقوالهم وأفعالهم، ويذبون عنه بأسيافهم وأرماحهم، ويكونون في عونه، فمن وافق ببيعته نال مسره، ولاقى مبرة، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، وخسر في يومه وأمسه ومات ميتة جاهلية لقوله ﷺ: "من مات ولم تكن في عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية"، وهو ما جلب للمسلمين مصلحة ولا درأ عنهم مفسدة بالتبيان، بل جلب لهم المضار والمفاسد والمشاق كما هو مشاهد ومدرك بالعيان، وإنما جلب المصالح والمنافع لأعداء الله بالزيادة في مملكتهم، وتمهيد أهل القبلة[1] بتمامها ودخول أهل القرى والصحارى في طاعتهم وتحت ذمتهم ومملكتهم، وما أضر إلا نفسه وأتباعه، ولله در من قال:

كناطح صخرة يوماً ليقلعها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

3. انتقام الجيش الفرنسي من السكان وأثر ثورة بوعمامة:

ولما علم الفرنسيس به خرجوا له من كل جهة وجانب دحوراً كأنهم جراد منتشر متوجهين إلى مكانه وناحيته، وقطع دابره وأمنيته وسدوا أماكن الخوف والمفازة بالجيوش والعساكر والإقامة وأعلنوا له بالقتال والحروب، فبادرهم بالفرار

(1) القبلة: تطلق على الجهة الجنوبية من البلاد الجزائرية ويقصد بها غالباً النواحي الصحراوية الواقعة إلى الجنوب من مناطق التل والهضاب.

والهروب، داعياً بالويل والثبور، تاركاً للمصابرة والأجور، وهو يتبع الخلوات كالطارق، ويتردد فيها كالسارق، وهم يفتشون عليه وهو في غفلته وانهاكه، ويحتالون في قبضه وإمساكه، فلما علم منهم ذلك وتحققه فاق من غفلته وعثرته، وما خامره من هفوته وسكرته، ورجع يخاطب نفسه ويقول لها ويحك قد حلت بك المحن والأهوان، من أهل الشرك والبهتان، فأين النجاة وكيف الخلاص، قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولات حين مناص، وبقي كؤوباً مرعوباً في فجارته، يتوارى طريق النجاح الموصلة لخلاصه ونجاته، فلم ير نفع من الفرار، والتسليم لما جاءت به الأقدار، فودع ما كان يراصده ويتمناه ويراقبه ويترجاه، فشمر للسفر والفرار، وترك الإقامة والقرار، وذهب خائفاً يترقب في الفيافي والقفار، وهو يقول ربي لا أسألك اليوم جهاداً ولا رياسة، ولا سلطاناً ولا مملكة ولا سياسة، ولا أسألك اليوم إلا نجاة نفسي وهو في تحسيره، يا ويلتاه ويا قلّة رأيه وتدبيره.

ثم إن الفرنسيس كلفوا المسلمين بالسخرة والركبة وشددوا عليهم وضيقوا عقوبة لهم كأن الضر جاء من جميعهم، وإنه من فعلهم وصَنيعهم، ووقع الهرج والفزع في الناس والقلق الكثير والاحتباس، ولم تبق حرمة لمن كان يستحقها من الناس، حتى أن بعض الشرفاء والأعيان الأوفياء، لم يكلف هو وأسلافه بخدمة الأمور المخزية، فكلف بها حينئذ وأنهم... وصار المسلم من أبغض ما يبغض عندهم، وبنوا في مواضع الماء وأماكن الخوف قرى محصنة، وطبابين عظاماً وبروجاً ضخاماً مصونة، ونصبوا المدافع عليها وأدخلوا عليها الماء في كل قرية أحدثوها فمشى[1] إليها وملؤوها بالعساكر والجيوش، والإقامة المحتاج إليها

(1) أي سار وانتقل.

وسدوها سككاً، حتى لا يجد العدو منفذاً ولا مسلكاً.

ثم صاروا يفتشون عليه في الفيافي والقفار وهو منهم ملازم للفرار، حتى أدركوا أبعد الأماكن التي لا يتعقل إدراكها عند مسافر أو ساكن، فوصلوها ولحقوا بقبائل عديدة، ومدن عديدة، ودخل الكل في حمايتهم وطاعتهم وما نالوا إلا خيراً وقوة من قيامه في ساعتهم، وغزوا بعض المسلمين وسفكوا دماءهم وسبوا نساءهم وذراريهم، وأخرجوا الكل من جلبيه، وأخذوا أموالهم وأمتعتهم وما جاء ذلك إلا بسببه، ولم يلغنا أنهم مثلوا بمسلم ولا حرقوه باشتهار، ولا فعلوا فعله مع أنهم كفار، وهذا وإن فرضنا صحة إمامته وتوليته فتنقطع بظلمه وجوره تجليته، لأن بعض المحدثين ذكر أن الدولة تنقطع بالظلم والجور، ولا تنقطع بالشرك والكفر، وذلك أن الكافر مقر على كفره، بخلاف المسلم فهو غير مقر على ظلمه وجوره.

وقد ظفروا بضريح السيد الشيخ فهدموه ونبشوا قبره وجمعوا عظامه بالأكمل ونقلوا ذلك لقرية البين ودفنوا تلك العظام، وبنوا عليه بناء وثيقاً يضاهي الأول، ولولاهم ما وقع ذلك عند من تأمل، ومن سفاهة نفسه وقلة رأيه وتدبيره وضعف مدركه وذهنه وتجبيره، إنه لم ينظر هذه الدولة العظيمة، والأمة الجسيمة، والجيوش الغزيرة، والإقامة الكبيرة، التي من أعظمها إجراء البابورات البرية على سبائك الحديد ليلاً ونهاراً بقدرة الله القدير[1]، ونصب الخيوط لإرسال الخبر وإتيانه في أقرب زمان والحزم للأمور والرأي والتدبير[2]، والحياة النافعة وقوة التحريس والمصابرة والمثابتة عند شدة الوطيس، ولو تأمل فيما قلناه، ونظر فيما

---

(1) تعبير لطيف قصد به المؤلف القطارات.

(2) يقصد بها أسلاك التيلفون.

ذكرناه، لكان بمعزل فيما ادعاه، ولم يطمع لهم في كراع شاه وقلامة حارس، ولم يقم في شرذمة هي سبع مائة فارس من غير إقامة فيها يخصهم وما يعمها، فضلاً عن ما يتعلق بالمهلكة التي ادعاها وزعمها، فلم يبق إلا أنه أدخل نفسه فيما لا يستحقه شرعاً وعادة وعقلاً وتلك مهلكة، وقد نص الأئمة أن من أدخل نفسه في الأمور من غير إذن يخاف عليه المهلكة، أما الشرع فإن الإمامة العظمى لا تثبت ولا تعقد إلا بإيصاء الخليفة الأول للثاني في المشتهر، كوصية أبي بكر لعمر، وأما بيعة أهل الربط والحل، كسائر الخلفاء في النقل، وتكون بالتغلب والقهر والحاوية، كما وقع من يزيد بن معاوية، وقد تكون بالجبر عليها كما وقع لسليمان بن عبد الملك حيث جبر ابن عمه عمر بن عبد العزيز عليها.

وأما فكيف يتعقل وجود إمام من غير بيعة يقتدي، ولا شيء مما ذكر ولا أهلية ولا إقامة ولا جيش وجميع ما تَنبني عليه الخلافة وتقام به.

4 . بعض الانتفاضات والثورات التي وقعت في الغرب الجزائري:

وأما العادة فقد نظرنا بالاستقراء فوجدنا ممن هو مثله هجم على الملوك، من غير موجب يوصله لذلك وإنما هو تطفل وتحامل على الملوك، فقد قام ابن الشريف الدرقاوي[1] على الأتراك في ولاية الباي مصطفى الأول سنة تسعة عشر ومائتين وألف[2]، وقصته وما وقع مشهورة يطول ذكرها، وتولى جمع ذلك كله

(1) عبد القادر بن الشريف الدرقاوي أحد أتباع العربي الدرقاوي قاد ثورة ضد البايليك بناحية الغرب سنة 1809، واستمرت ثورته حوالي عشر سنوات هزم فيها جيش باي وهران بفرطاسة جويلية 1805، ثم آل أمره إلى التراجع بعد معارك عديدة ففر إلى نواحي تلمسان، ثم لحق بجبل يزناسن بالمغرب الأقصى حيث انتهى أمره هناك.

(2) 1219هـ/ 1804م.

الحافظ أبو راس في كتابه الذي اسمه: درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة[1]، وقام عليهم التجيني في ولاية الباي حسن سنة اثنين وأربعين ومائتين وألف[2] ففرقوا حزبه وزمرته، وشتتوا جمعه وشمله ودورته، وفر بنفسه ووقعت النهبة في جيشه ودائرته، وقام أبو حمار[3] من جهة المشرق على يد السيد الحاج عبد القادر سنة تسع وأربعين ومائتين وألف فزحف له الداهية الكبرى والمصيبة العظمى العسكري، فريد دهره، وبديع عصره بجيوش كثيرة وعساكر غزيرة، مدافع وطبول، وفحول على عتاق الخيول، ووقع القتال بينهما فما لبث غير ساعة حتى هزم بنفسه وبعض خواصه والنساء والأمتعة، وترك المحل بما فيها من الرجال والنساء والأمتعة، ووقع منكر كبير من عسكر الأمير في نساء ذلك، لأنه

(1) الحافظ أبو راس الناصري، من أشهر مؤرخي الجزائر في العهد العثماني، ولد سنة 1165هـ/ 1823م، وتوفي بمعسكر سنة 1238م، ولا يزال قبره معروفاً هناك. ترك العديد من المصنفات فقد نسب إليه 137 مصنفاً أهمها في التاريخ: درء الشقاوة في حرب درقاوة، وعجائب الأسفار ولطائف الأخبار. وهو شرح لقصيدةسينيّة ضمّنه العديد من الأحداث التاريخية المهمة.

(2) 1242هـ/ 1826م، في عهد ولاية الباي حسن بن موسى آخر بايات وهران (1826 ـ 1830م)، والمقصود بالتيجاني هنا: أحمد بن سالم التجاني الذي تولى رأسه هاشم وأعلن الثورة، ضد البايليك، ولقي حتفه في المعركة، وقد تسبب ذلك في انتهاج البايليك سياسة القمع ضد شيوخ الطرق الدينية خاصة درقاوة والتيجانية، وممن قتل من جراء ذلك الشيخ بلقندوز (1829) الذي رثاه تلميذه شارف بن طكوك بغوثية مشهورة تنقم من تصرف باي وهران.

(3) أبو حمار هو الحاج موسى بن حسن استوطن بلاد أولاد نايل وأظهر التقوى والصلاح وانتحل أوراد الطريقة الشاذلية، زحف على مدينة المدية في جمع من قبائل الناحية فدافعهم أهلها وأطلقوا عليهم مدفعاً قديماً فانكسر فجعلوا ذلك كرامة له. وانتهى أمره على يد الأمير الذي اضطره إلى الاستسلام مع جموعه ببلاد وامري سنة 1834.

أتى جيشه بنسائهم والله أعلم بقصدهم بذلك، وقام أبو سيف الخويلدي على هؤلاء الفرنسيس سنة إحدى وستين ومائتين وألف فانتصب، وما قدر على قتال أهل قرية فضلاً عن القواعد وما نال إلا التعب، وقام عبد الرحمن الطوطني الدرقاوي العامري بفقرائه في العام المذكور على الفرنسيس ببلعباس يوم الخميس وكان ذلك يوم السوق فلم يفده شيئاً وكان مآله هو ومن معه القتل.

وقام ولد سيدي حمزة ابن الشيخ سنة ثمانين ومائتين وألف في أيامه وقام سيدي الأزرق الفليتي ووقع الفزع والجزع والهرج بالناس بما دهمهم من السخرة والركبة، وما نال شيئاً سوى التعب وحصول الجهد والمشقة، ثم زار هذا السيد الذي اسمه أبو عمامة وقام ثم أفال فوراً ووقع به المسلمون ما رأيته من الذل والإهانة ولعل هؤلاء المذكورين من الستين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: "لا يخرج المهدي حتى يخرج ستون كذاباً كل واحد يقول أنا المهدي".

وما علمنا ما قصده بقيامه هذا هل حصول المنفعة له ولتبعه بأخذ أموال المسلمين بشن الغارات عليهم فهو حينئذ صائل وغاصب يجب دفعه بما يندفع به، وقد قال ابن الفخار لا يعلم في الشرع ذنب يبيح مال المسلم إلا الكفر وإن كان قصده الجهاد فهيهات هيهات ما أبعده منه لأنه لا يجب إلا مع من ثبتت إمامته، وقال الإمام عبد الواحد بن عاشر والشيخ إبراهيم الكيلاني والشيخ العربي الفاسي وغيرهم أن الجهاد لا يتوقف على وجود إمام بل جماعة من المسلمين يقومون مقام الإمام إن ظنوا الكفاية وحصول النكاية.

وأما هو فلا أقل من أن يكون حراماً في حقه لأنه ليس بإمام ومن معه ليسوا بجماعة.

والجهاد تعتريه الأحكام، وهو من الجالبين للشر فقط وكانت العرب تطرد الشرير المتمرد لكي لا تؤاخذه بجرائره ولو لبث في مكانه واجتهد في الطاعة، وشمر للعبادة، ولكان خيراً له أولى لأن الفرانسيس لا عليهم في من يترك الادعاء والتخلاط ولو مشهوراً عند الناس.

أما ترى أن الشيخ ابن الحمياني كان له عسكر من الطلبة فيما نظروا له سوء وكذا السيد عدة بوغلام الله الدرقاوي فجمعه دائماً بالإخوان والتلامذة فما أنكروا في شيء من ذلك ولا نقموا عليه فيه ويقي تلميذه السيد الموسوم على ذلك وابن التكوك المجاهري والمجذوب السيد محمد بن أبي سيف التراري بمدينة بني صاف والسيد محمد بن القاسم بنواحي أبي سعادة وهم كسائر المسلمين ينتظرون الفرج، وزوال الحرج، وانتظار الفرج واجب والعسر لا يدوم على أحد فقد قال ﷺ: لو دخل العسر في حجر لدخل عليه اليسر وأخرجه، وقال عليه السلام لا يغلب عسر يسرين، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1]. ووجه ذلك أن المعرفة إذا أعيدت بلفظها فالثانية عين الأولى فصار العسر واحد وأما النكرة إذا أعيدت بلفظها فالثانية غير الأولى فهما حينئذ يسران وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[2]. وقال ﷺ: يوم لك ويوم عليك. وقالت العرب يوم سمين ويوم هزيل وقال الشيخ أبو العباس السيد أحمد بن سليمان:

ومن ظن أن الدهر يبقى سروره	فذلك محال لا يدوم سرور
عفا الله عمن صير الهم واحداً	وأيقن أن الدائرات تدور

(1) قرآن كريم، [الشرح: 5-6].

(2) قرآن كريم، [آل عمران: 140].

وقال غيره:

كل امرئ بمحال الدهر مكروب   وكل من غلب الأيام مغلوب

وقال آخر:

يوم لنا ويوم علينا   ويوم نسر ويوم نساء

ومن أراد سلامة الدنيا والآخرة فليلزم بيته، وليترك الادعاء ومخالطة الناس لقوله عليه السلام: "كن جليسا من احلاس بيتك" أي الزم بيتك، وأمّا ما ورد من أن المؤمن المخالط للناس الصابر على أذاهم أفضل ممن يعتز لهم، فلعل هذا محمول على زمان العدل وكان ﷺ مقاماً وقد أتاه ذو الخويصة التميمي فقال يا رسول الله أعدل فقال له ويحك ومن يعدل إن لم أعدل، لقد خبث وخسرت، إن لم أعدل، فقال له عمر يا رسول الله اضرب عنقه فقال: دعه وقالت عائشة استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال بيس العشيرة أو أخ العشيرة ثم أذن له فلما دخل لان له القول فلما خرج قلت يا رسول قلت ما قلت ثم ألنّت له القول فقال يا عائشة إن من شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه، وقوله استأذن رجل وجاء في بعض الروايات التصريح بأنه مخزمة بن نوفل والذي عليه المعول أنه عيينه ابن حصن الفزاري، وكان إذ ذاك مضمراً للنفاق فلذا قال فيه رسول الله ﷺ ما قال ليتقي شره فهو ليس بغيبة بل نصيحة للأمة ويدل على ذلك أنه أظهر الردة بعده ﷺ وجيء به إلى أبي بكر أسيراً، فكان الصبيان يصيحون عليه في الزقاق ويقولون هذا الذي خرج من الدين فيقول لهم عمكم لم يدخل حتى يخرج لكن أسلم عيينة بعد ذلك وحسن إسلامة وحضر بعض الفتوحات في عهد عمر.

وأخرج ابن عساكر عن ربيعة أن علياً قال خالطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم...[1]، بقلوبكم وأعمالكم فإن للمرء ما اكتسب وهو يوم القيامة مع من أحب وورد أن صحبته أهل الخير تؤثر في دين الرجل حتى قالوا لقاء أهل الخير عمارة القلوب.

وقال بعض أئمة المذهب ارتكاب ما يوجب اجتماع الناس مكروه إن أدى إلى فتنة أو إخلال بمروءة، وهذا السيد لو تأمل وتروى وجمع بين الإشارة والاستخارة لم يقم فيما خل به وبالمسلمين ولا خاب فيما أراده، ولا ندم فيما قصده لقوله عليه السلام ولا خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ومن كان له أخلاق طاهرة، وأحوال باصرة، وعقل راجح، ونور لائح، فليترك طلب الرياسة، والاستعلاء والإمارة، ويعالج نفسه في الإعراض عنها لأنه ورد كل راع فهو مسؤول عن رعيته.

5. ذكر بعض من تولى حكم البلاد الجزائرية:

وقد أطال الله عمر عاد وأكثر أولاده وفي التواريخ أنه ولد له أربعة آلاف ولد لصلبه الذكور، وتزوج ألف امرأة وعاش ثلاثمائة سنة وملك بعده أولاده الثلاثة شداد وشديد ورام، وقال الزمخشري شداد هو الذي بنى مدينة إرم في صحاري عدن وشيد لها بصخور الذهب وأساطين الياقوت والزبرجد يحاكي بها الجنة لما سمع وصفها طغياناً منه وعتوا، وذكر ابن سعيد البيهقي أن بني إرم بن شداد بن عاد الأكبر والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها إرم وإنما هذا من خرافات

(1) بياض في الأصل.

القصاص وإنما ينقله ضعفاء المفسرين وإرم المذكور في القرآن القبيلة لا البلد انظر ابن خلدون وبعد هذه المدة الطويلة، والرياسة العظيمة والمملكة الكبيرة، صار إلى العدم والانقضاء وقد استمرت دولة الأتراك في إقليم الجزائر حتى بلغت ثلاثمائة سنة واثنين وثلاثين سنة لأنهم ملكوها في خمسة عشر من القرن العاشر وأخرجهم الفرنسيس منها سنة ستة وأربعين من الثالث عشر[1] لا كما صرح صاحب النزهة إن دخولهم بها كان في سنة ثلاث وعشرين وعلى هذا فإنهم بقوا فيها ثلاثمائة وثلاثاً وعشرين سنة أول باشا بها خير الدين حسن التركي[2] وأخذها من يد السبنيول أهل وهران سنة ثلاث وعشرين وتسع مائة وسبب ذلك أن النصارى لما أن تغلبوا على سواحل البحر كتب الشيخ أحمد بن القاضي الزواوي[3] إلى السلطان

---

(1) 1246هـ/ 1830م.

(2) خير الدين بربروسة اسمه الحقيقي خسرف، ولد بجزيرة مدلي ببَحْر إيجه، حوالي 879هـ/ 1474م من أب انكشاري يعمل في صناعة الخزف يدعى يعقوب بن يوسف، اشترك مع إخوته الأربعة بالجهاد البحري بسواحل المتوسط الشرقية قبل أن يتخذ هو وأخوه عروج جربة قاعدة لنشاطه البحري والانتقال منها إلى تونس مقابل إعطاء خمس الغنائم للسلطان الحفصي. ساهم في محاولة استرجاع بجاية 1512، وعندما لم يوفق تحول إلى جيجل وطرد منها الجنوبيين ومنها انتقل إلى الجزائر بطلب من أهلها مع أخيه عروج، وتمكن من تدعيم سلطته بالجزائر وشجع على إلحاقها بالدولة العثمانية 1518 بعد أن عمل على تنظيم شؤونها وتوسيع حدودها. نجح في القضاء على الحصن الإسباني « البنيون » الذي كان يهدد مدينة الجزائر 1529، انتقل خير الدين إلى استانبول لتولي قيادة الأسطول العثماني 1534. وافته المنية بعد تحقق مآثر وأعمالا مجيدة خلدت اسمه في سجل التاريخ، وقد دفن باستانبول 1546.

(3) أحمد بن القاضي تولى القضاء ببجاية 917هـ/ 1511م ودفعه طموحه إلى تأسيس إمارة في منطقة جرجرة بقرية كوكو، لعب دوراً مهماً في الأحداث التي أسفرت عن استقرار الأخوين عروج وخير الدين بربروسة بالجزائر 1514 والتحاق البلاد الجزائرية بالدولة العثمانية 1518م، انقلب في الأخير على خير الدين وانتهى أمره إلى القتل من طرف =

سليم[1] في ذلك فبعث الباشا خير الدين للجزائر.

وكان أول من مدنها ووسع خطتها هو الأمير بلكين بضم الباء واللام وتشديد الكاف المكسورة بن زيري بن مناد الصنهاجي بضم الصاد ونص بن خلدون واختط بلكين بأمر أبيه وعلى عهده مدينة الجزائر بساحل البحر ومليانة بإزاء الشلف والمدية بعد الستين من القرن الرابع[2] وقد مات بلكين سنة ثلاث وسبعين من القرن المذكور[3] واستقل بالمملكة بعد موت أبيه زيري فيكون بناء هذه المدن الثلاثة بين الستين وثلاث وسبعين من القرن الرابع[4] وقد ملكها منديل بن عبد الرحمن المغرواي أمين مغراوة أهل الشلف وهو الذي بني مازونة في القرن السادس وكانت له حروب مع الثعالبة أهل الجزائر ومتيجة رهط السيد عبد الرحمن[5] عالم الجزائر وعاملها وكان لهم بها ثلاثون مدينة فخر بها منديل

أنصاره بنواحي ثنية بني عائشة 933هـ / 1527م.

(1) السلطان سليم الملقب بياوز ابن بايزيد، حكم الدولة العثمانية من 1512 إلى 1520. واشتهر بالشدة والصرامة، قضى على دولة المماليك بالشام ومصر إثر معركتي مرج دابق 1616 بالقرب من حلب والريدانية بالقاهرة سنة 1517م ودانت له الحجاز بالطاعة ودخلت تحت حكمه فلقب بخادم الحرمين. كما وضع حداً لتوسع دولة الصفويين إثر هزيمة الشاه اسماعيل في معركة جالديران عام 1514. وفي عهده التحقت الجزائر اختيارياً بالإمبراطورية العثمانية بتشجيع من خير الدين بربروسة سنة 1518.

(2) 360هـ/ 970م.

(3) 373هـ/ 983م.

(4) 360 ـ 373هـ/ 970م.

(5) الإمام الحافظ عبد الرحمن الثعالبي، عرف بالصلاح والعلم، ولد بناحية يسر سنة 785هـ / 1584م، تلقى العلم بمدينة بجاية، وأخذ العلم بها عن علماء أجلاء بها، وبعد أن طاف بتونس ومصر والحجاز، استقر بمدينة الجزائر حيث توفي بها في 23 رمضان 875هـ (1470) =

وزحف له ابن غانية من المشرق ولقيه ابن منديل فاقتتلا فكانت الهزيمة على منديل فقتل وصلب في باب الجزائر.

6. دخول الفرنسيين إلى الجزائر وقيام الأمير عبد القادر:

وقد دخلها هؤلاء الفرنسيس ضحوة يوم الإثنين في أول الصيف في أربعة عشر من المحرم سنة ست وأربعين ومائتين وألف. وفي الشهر المذكور دخلوا وهران[1] وفر المسلمون منها وانتشروا مع الطرق، ولقيهم أهل البادية من كل مكان وسدوا عليهم المسالك والطرق، وانتهبوا ما بأيديهم من الأموال والأمتعة، وثار الثوار بعضهم على بعض بالقتل وشن الغارات وأخذ الأمتعة، ووقع الهرج والفزع في الناس ووقعت حروب كثيرة بين قبائل المسلمين، فلا حول ولا قوة إلا بالله واستمروا على ذلك نحو السنتين حتى من الله على المؤمنين باتفاق من وفقه الله للهداية، وظهرت عليه العناية من رؤساء القبائل وكبرائهم، وصناديدهموزعمائهم ووزرائهم، وأهل الفضل والنهي منهم، بنصب إمام عدل يبايعونه ويتابعونه ويسمعون لأمره ونهيه وجالوا في ميدان أفكارهم ممن يكون لذلك أهل من ذوي الفضل والكمال فلم يجدوا لذلك المنصب الجليل، والمقام الجزيل إلا ذا السبل الطاهر، والكمال الباهر، رأس الملة والدين القامع أعداء الله الظالمين، الفقيه البارع، المفضال الجامع، علامة المحققين، وصدر الأفاضل المبرزين، شيخ الطريقة وإمام أهل الحقيقة، سلالة المختار، السيد محي الدين بن مصطفى بن المختار، لكونه أهلاً لها وأصلح، وأولى بها وأنجح، فامتنع منها

= وله تأليف عديدة أشهرها تفسيره للقرآن الكريم المعروف بالجواهر الحسان.

(1) 1246هـ/ 1830م.

وفزع، وأعرض عنها وجزع، وما ذلك إلا لعظمها عند الله وخطرها وشقوقها، وخوف الإفراط والتقصير في حقوقها، وأشار بها إلى ولده الأمجد، وطلعته الأسعد، بديع زمانه، وأديب أوانه، ذي المقدار النامي، والمقدم السامي، ناصر الدين، المخلص لرب العالمين، السيد الحاج عبد القادر بن محي الدين[1]، لكونه ذا حزم وشجاعة، ورأي وتدبير وطاعة، فأذعنوا له وأنفذوا أمره، وتمموا غرضه وفخره، فحينئذ بايعوه بيعة تامة، كاملة عامة، بيعة سلم وطاعة، بأفراد وجماعة، بيعة عز وتعظيم، وتبجيل وتكريم.

وقعت هذه البيعة في ثاني عشر من رمضان سنة ثمان وأربعين ومئتين وألف[2]، بمحضر أبيه المذكور وعمه السيد علي بن أبي طالب وعلماء أعلام، وأولياء عظام، كالقطب الرباني أبي المقامات والمنازل، والارتقاء إلى مشرب مناهل أهل الله الأفاضل، كامل القريحة، السيد الأعرج بن محمد بن فريحة، والوالي الناسك الأشرف، السيد محمد بن حواء بن يخلف[3]، وحافظ العصر،

---

(1) الأمير عبد القادر الابن الرابع للشيخ عبد القادر محي الدين الهاشمي، ولد بقرية القيطنة على ضفة وادي الحمام بمنطقة غريس التي تقع في إقليم وهران سنة 1807، وتولى قيادة الجهاد المسلح ضدّ الغزو الفرنسي بالناحية الغربية (1832 ـ 1847) بعد فترة من الاعتقال بفرنسا استقر بدمشق حيث توفي في 19 رجب 1300هـ الموافقة لـ 24 ماي 1883م بعد حياة حافلة بالأعمال الجليلة والمآثر الخالدة.

(2) 1248هـ/ 1832م، وكما هو معروف فقد بويع الأمير عبد القادر بيعتين، الأولى خاصة ببلاد غريس هي المعروفة ببيعة شجرة الدردارة في شهر رجب 1298 (27 نوفمبر 1832م) والثانية وهي التي أشار إليها صاحب المخطوط وتعرف بالبيعة العامة بمعسكر في 13 رمضان (1298) الموافق لـ 4 فيفري 1833.

(3) محمد بن حواء: من رجال دولة الأمير عبد القادر، عرف بعلمه وصلاحه وتولى القضاء في أواخر العهد العثماني، وهو محرر بيان بيعة الأمير الثانية وهي مبايعة عامة بمعسكر =

وعلامة الدهر، الملقب بسقاط ذي العلم الذي ليس فيه التخفي، والقوة والبسالة والمثابرة، والحزم والشهامة، والكر على العدو بالمداومة، وشدة الأقدام، والضرب بالحسام، فلا عين رأت، ولا أذن سمعت فللّه دره ولم يجد لها منفذاً ولا سبيلاً، ولا مسلكاً ولا دليلاً، لكونها محصنة بالأسوار العظام، والبروج الضخام، فحينئذ صد عنها ونفر، ورجع بجيشه للمعسكر، لأنها وقتئذ دار مملكته، ومصر إمامته، مع ما أورثه الله من النصر والقبول والتأييد والمرام بحصول المأمول.

ثم بعد مدة قريبة طلب منه الفرنسيس عقد المهادنة فأجابهم لذلك اقتداء بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[1] ولما فيها من المصالح العائد نفعها على المسلمين فانعقد الصلح بينهما على شرط أن يدفع لهم ذكور البقر والضأن المعدة للذبح والأكل ويأخذ منهم السلاح والبارود كل ميد الآخر واستمروا على ذلك مدة حتى آل أمرهما واتفق رأيهما، بتفصيل الصلح فحينئذ خرج السيد المذكور، والمجاهد المنصور، من المعسكر قاصداً قتالهم بوهران، أما الخنازير أعادها الله للإسلام، ونزل بوادي سيق، وهو يتجسس خروجهم ويستشعر خياشمهم بالتحقيق، فوجه جيشاً من صناديد القبائل وأبطالهم، وأهل الحزم في أقوالهم وأفعالهم، أهل الخيول الجياد، والركاب الوفاد، وأمر عليهم وزيره وآغة مخزنه ذا النجدة والشجاعة، والبسالة والبراعة، والجزم والحزم الشهير، والفراسة والنصيحة والمعرفة والرأي والتدبير، الذي ليس له

= للأمير في 13 رمضان 1248 (4 فبراير 1833)، كما هو وارد في الهامش السابق، وقد اشتهر محمد بن حواء أيضاً بنسخ العديد من الكتب، وله مصنف « سبيكة العقيان فيمن في مستغانم وأحوازها من العلماء والأعيان ». يوجد قبره بضواحي مستغانم.

(1) قرآن كريم، [الأنفال: 61].

بوقته الشبيه ولا المسافر، محمد المزاري ولد قدور بن إسماعيل البحثاوي[1]، ليفتشوا سواحل البحر وأرض المدينة، هل خرج جيش الفرنسيس أو لم يخرج من تلك المدينة، وواعدهم بالملاقة في الكرمة[2]، وبها يحصل الفوز بالنعمة والحرمة.

وكان هذا الموضع قريباً من وهران، وغالب مجيء النصارى معه في السر والإعلان، فذهبوا من سيق عشية وأخذوا مع الجيرة، وبات هو بتلك الليلة وبالواد المذكور بالحجيرة، بعساكره وبقيه جيشه الخيالة، ثم ارتحل من الغد بكرة يريد الحرب الأحمر بواد تليلات بغير الخيالة، ومنه يذهب للملاقة مع وزيره بالمحل المذكور، وكان معه من العسكر نحو الستمائة وذلك مبلغ ما كتب ومن المطاوعة ما ليس بمحصور، فبينما هو ذاهب والعدو قابل ولا علم لواحد بالآخر للاستعداد حيث يقاتل، وإذا بالفريقين التقيا غفلة بالزبوج المذكور بموضع من بلاد الغرابة[3] يقال له المقيتلة، فبانت به المصائب... والتقت الأبطال بالأبطال، والفرسان بالفرسان والرجال بالرجال، وثبت كل فريق لصاحبه واستقر بمركزه، إلى أن فني الجل من الجيشين في مجزرة، وتعاظم القتل وعدمت النجاة، واختلط من شدة القتلى الأموات بالأموات.

---

(1) محمد المزاري ولد قدور بن إسماعيل البحثاوي هو ابن أخ مصطفى ابن إسماعيل آغا الدواير، وقد خرج عن طاعة الأمير عبد القادر فيما بعد والتحق بصفوف الجيش الفرنسي.

(2) الكرمة: مكان يقع إلى الجنوب الشرقي لمدينة وهران كانت تقطن به قبيلة الزمالة المخزنية، بالقرب منه يوجد زبوج أو غابة مولاي اسماعيل الواقعة إلى الشمال من مدينة السيق بنحو 15 كلم.

(3) الغرابة: ويعرفون بعبيد الغرابة وهم قبيلة مخزنية تقطن بمنطقة المقطع جنوب خليج آرزيو وشمال بلاد الهبرة عند التقاء واد الحمام بواد مكرة.

وكان للخليفة الأعظم، والوزير الأفخم، صاحب الأيالة الشرقية للتناجي، السيد محمد بن أبي شقور المجاجي، حملات على العدو ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين، لا يأتي أحد بمثلها من غير ميز، إلى أن استشهد بالتحقيق كما استشهد مصطفى ولد حروش بالتحقيق، فرجع الإمام المنصور، والضرغام المزبور، والكفرة بأثره وكل فريق، منهما يريد النزول بسيق، تجاوزه السلطان ونزل ثم نزل العدو قبالته والواد بينهما.

ثم أتى الجيش الذي بعثه السلطان ووقع القتال بينهما بقية النهار حتى غشيتهم ظلمات الليل وكم للمزاري في ذلك اليوم من الحملات وساعده قدور بالمخفي[1] في ذلك وجالا جولاناً عظيماً إلى أن انجرح المزاري وانجرح تحته ثلاثة خيول أحدهم فرس السلطان الأدهم وتفرق عن السلطان كثير من جيوش القبائل ظناً منهم أن لا يستقيم أمره ولا يجمع شمله ولم يبق إلا القليل من الناس مع عسكره ولولا أن الله أيده بقبيلة الغرابة لتفرق جمعه من ذلك اليوم فالحمد لله واستمر الفريقان بالواد المذكور والقتال لا ينقطع ثلاثة أيام ورجع جيش القبائل المتفرقة، ثم في الليلة الرابعة رحل العدو بكره ناكصاً على عقبه يريد مرسى آرزو كونها قريبة من خلاصه وسبباً في نجاته وركبت جيوش المسلمين من كل جانب وهو فار لا يلتفت خلفه واشتد القتال بينهما في أرض حيان[2] وتداولت عليه الحملات من الجيش المنصور واكتنفته من كل جانب

---

(1) قدور بالمخفي أو ولد المخفي ينتسب إلى أسرة مخزنية متعاونة مع البايليك، ناصبت الأمير العداء مما اضطر هذا الأخير إلى إيقاع العقاب بها.

(2) قبيلة حيان: من القبائل المقيمة بنواحي وهران إلى الجنوب من آرزيو قد تعاون شيوخها مع الإسبان حسبما أشار إلى ذلك الشيخ عبد القادر المشرفي في مصنفه « بهجة الناظر في =

ومكان وأسرف الجيش السلطاني في قتلهم وأسرهم وسبي أموالهم هم قاصدون البحر في عجل، وقلوبهم في وجل، وذاهلة أفكارهم، مدهشة قلوبهم، مرعدة فرائسهم، من شدة ما دهمهم، من الطعن وحر الوطيس ووصلوا البحر ليلاً وذهبوا لوهران، مع ما أولاهم الله به من الصفر والخذلان.

والله إني رأيت بعيني أن الحجلة تطير يميناً وشمالاً في أرض حميان ولا تجد منفذاً ولا مسلكاً حتى تنزل في حجر الراكب أو على رأسه والأرنب والذئب يجريان كذلك ولا يجدان مأوى يخلصهما من القتل والأسر حتى يقفا رأسا من غير ممسك، وبقوا مدة نحو السنة ثم خرجوا بجيوش لايستطاع دفعها قاصدين دخول المعسكر فلقيهم السلطان في سيق فرحل الكافر يدبر المبيت في هبرة[1] والسلطان بجيشه يمشي أمامه وخليفة الأيالة الغربية هو السيد محمد البوحيدي خلفه بجيوشه ولم يقع بينهما قتال حتى وصلا لضريح السيد مبارك بن بخباخ فتقاتلا ولم يفترقا إلا بعد مغيب الشفق، وجاوزوا الواد وبات في أرض الرميلية وارتحل من الغد وذهب مع طريق سجرارة ودخل المعسكر وسط شعبان سنة أحد وخمسين ومئتين وألف وفر أهلها منها وتفرقوا في القبائل وأقاموا بها يومين ورجعوا المستغانم وفي أربعة عشر من رمضان في هذه السنة دخلوا تلمسان وانجلى أهلها منها سوى القرغلان وقتل السيد بن مزيان بعد الظفر به وفي هذه السنة قتل خليفته العلامة السيد بن فريحة بن خضير

= أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران كبني عامر». انظر عبد القادر المشرفي بهجة الناظر... تحقيق محمد بن عبد الكريم مكتبة الحياة، بيروت. د. ت.

(1) هبرة: فرقة من السويد وهي قبيلة كانت توجد في الجنوب الشرقي من زمورة. وهناك أراضي تعرف ببلاد الهبرة بين وادي الحمام والسيق وإلى الغرب منها.

المهاجي[1] بمدينة البرج غدراً قتله قوم التفنشي الحشمي ولا حول ولا قوة إلا بالله ودخلوا تاقدمت في ربيع الأول من سنة سبع وخمسين ومتين[2] وألف ورجعوا منها للمعسكر أوائل ربيع الثاني من السنة المذكورة.

ثم إن السيد الحاج عبد القادر لما أراد الله إدبار دولته وانقضاء دولته، صار الفرنسيس يشنون الغارات على المسلمين ويصكوتهم بخيلهم وأرجلهم المرة بعد المرة فيقتلون المقاتل، ويسبون النساء والذراري ويأخذون الأموال والأمتعة وحصلت المشقة للناس والتعب بتكرر الفرار وأجهدهم الجوع والعطش وهم يتقلبون ليلاً ونهاراً من مكان لآخر خوفاً من هجوم العدو وكرته فلما آن أيس المسلمون من دفعهم وخافوا من مكرهم وعقوبتهم رجعوا إليهم ودخلوا في طاعتهم وتحت حكمهم وصاروا يركبون معهم ويسيرون بسيرتهم أين توجهوا وتفرقت عنه جيوش القبائل فلم يبق معه إلا أهل الدواوين والبعض من أعيان الناس ولما أن علم السيد ذلك وتحققه امتاز بدائرته ونزل بطاقين من أرض القبيلة وهو راكب في بقية جيشه ليلاً ونهاراً خوفاً من غارة العدو وبقي على ذلك أياماً حتى صكه حاكم الجزائر بجيشه نهاراً ولم يعلم به حتى ظفر بالدائرة وأسرف فيها بالقتل والأسر وأخذ الأمتعة وما هو بحاضر وفر أهل بيته وبعض الناس بأنفسهم فقط وتركوا من الذهب والفضة والأمتعة ما لا يحصى وجمعوا المسلمين وذهبوا بهم إلى الجزائر ثم لوهران فمن لم يكن له أهل بالدائرة خلوا سبيله وذهب حيث شاء ومن لم

---

(1) توفي ابن فريحة عندما أصابته رصاصة طائشة من إحدى بنادق بعض أفراد الجيش الذين كانوا في سباق على ظهور الخيل. وقد اعتقد البعض آنذاك بأن الأمير له دخل في ذلك. وبعد التحقق في هذا الحادث تبين أن الحادثة كانت مجرد خطإ. أنظر تحفة الزائر، ص 254.

(2) 1257هـ/ 1841م.

يكن أهله وولده بها جسوه وقع ذلك سنة تسع وخمسين ومئتين وألف[1] وفي تلك السنة مات رايس البحايثية مصطفى بن اسماعيل[2] الداثري الذي هو عمدة جيش الفرنسيس بأرض فليتة[3] وأخذت محله ومات منها خلق كثير بلا قتال وذهب الأمير بباقي دائرته للمغرب ونزل بطاعة مولاي عبد الرحمن سلطان المغرب[4] وحط كلكله بها فمنعه من المكث والإقامة بطاعته وبعث ولده مولاي محمد بجيوش لا نهاية لحصرها ولا غاية لعددها ليخرجه من أرضه ووقع القتال بينهما في واد ملوية فكانت الهزيمة على ولد السلطان المذكور فشمر في طلبه ليث الحروب، وضرغام الجهاد المزول للركوب، ذو النجدة والرياسة، والتدبير والسياسة، السيد الحاج عبد القادر وأسرف في قتل جيشه وسارع في هد قوته، وحصد شوكته، حتى كل ووقف عن القتال، وما عليه إلا بالرحلة والانتقال فحينئذ عرف قدره، ولازم قدره، ورجع الإمام المؤيد، والملك المسدد، رضي الله عنه.

---

(1) 1259هـ/ 1843م.

(2) مصطفى بن إسماعيل تولى قيادة قبائل المخزن المتعاملة مع البايليك والمتواجدة بنواحي وهران "الدواير والزمالة" وحتى يضمن مكانته انضم فيما بعد إلى الجيش الفرنسي وقد لقي مصرعه على يد رجال الأمير، بعد واقعة الزمالة 1259هـ/ 1843م. بناحية تاقدمت قرب تيارت الحالية.

(3) أرض فليتة منطقة جبلية توجد إلى الشرق من وادي مينا، جنوب مدينة زمورة الغرب.

(4) مولاي عبد الرحمن بن هشام سلطان الدولة العلوية بالمغرب (1238 ـ 1276م / 1822 ـ 1859م) تميز عهده بإمضاء عدة معاهدات مع الدول الأوروبية في غير صالح المغرب، وحاول التدخل في شؤون الناحية الغربية إثر سقوط الجزائر تحت الاحتلال، فانهزم في معركة اسلي سنة 1844؛ واضطر إلى توقيع معاهدة مغنية 1845، التي نصت على غلق الحدود المغربية في وجه المقاومين الجزائريين والامتناع عن تقديم أي إعانة للأمير عبد القادر.

7 . تسليم الأمير ونقله إلى باريس:

فلما أن علم أنه لم يكن له للعدو دفاع ولا طمع له في ولايته بإجماع وغشيه من تفرق جيشه ورجوع الرعية لعدوه وخاف على نفسه من نكبة المسلمين وصكة الكافرين ظهر له في رأيه المفيد وتدبيره السديد أن يسلم في ولايته للفرنسيين فبعث سيفه لبطريقهم أبي هراوة وتقدم هو بنفسه عنده ليتكلم معه في أمور إدارتها فأتاه فوراً في نفر من الطاغية، فطلب منه التسريح للشرق ويعطيه كتاب الأمن والأمان على نفسه وأهله وأتباعه فأجابه لذلك فحينئذ خير أهل دائرته في الرجوع كل واحد لأهله وفي الذهاب معه فمن أراد الرجوع رجع ومن أراد الذهاب كتب من دائرته المتنقلة معه فنقلوه لباريز في المحرم الفاتح لسنة أربع وستين ومئتين وألف وتولوا جمع كلفته ومُؤنته فأبقوه مدة حتى من الله عليه وعلى من معه بالانتقال إلى الشام فأنزلوه هناك فاستوطنها هنيئاً مريئاً وصارت له مثوى بالمقام، وخلص من أعداء الله اللئام، وتبسم المصر عند قدومه، وسرّ بمكثه ونزوله، وجعلوا له خراجاً معلوماً يفي بمؤنته في كل شهر وألحفه الله برود المهابة، والقبول عند العامة والخاصة، حتى صار ذا كرامات ظاهرة، وأحوال باهرة، وأخلاق طاهرة، وأقبلت عليه الوفود بالزيارة والهدايا، وشدت له الرحال، وركب المطايا، واتخذ خلوة بلصق داره مثابراً في الصلاة والذكر والتلاوة والتفكر في مصنوعات الله والاعتبار فيها وهذه عبادته ﷺ بغار حراء قبل نزول الوحي أي بالتفكر في مصنوعات الله والاعتبار فيها بناء على أنه لم يتعبد بشريعة أحد من الرسل.

وكان شديد المحبة لأهل وطنه يتفكه بذكرهم ويتنفس برسائلهم ولما أن ذهب للمشرق قاصداً بيت الله العظيم سنة تسع وسبعين ومئتين وألف[1] قام له

(1) 1279هـ/ 1862م.

على ساق واحد وقد زار بعض العلماء الموجودين وقتئذ وتبرك بهم كالشيخ عبد الله الدراجي والشيخ محمد بن مسعود الفاسي ولقنه الذكر في مكة والشيخ عليش المصري والشيخ حسن البلاقي ورجع لبيته واستمر على طاعة الله حتى توفي سنة ثلاثمائة وألف[1] بأرض الشام وبلغنا أنه حضر جنازته جمع كثير، وجم غفير، حتى أن بعض بطاريق الأجناس وطواغيهم شهد جنازته وشيعها إجلالاً وتعظيماً له وهذا من الكرامات التي أكرمه الله بها وقد قال عليه السلام فرق بيننا وبين أهل الشرك الجنائز وقد ذكر الشيخ ابن عبد الرحمن التلمساني فيما كتبه على الخرشي أن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ لما مات خرج أهل بغداد إلى الصحراء يصلون عليه فحزروا من حضر من الرجال ثمانمائة ألف ومن النساء ستين ألفاً سوى من كان في الطرق والسفر وأسلم يوم موته عشرون من اليهود والنصارى والمجوس وما أعطي هذا إلا لعلمه وعمله[2].

8. بعض المجاعات والأوبئة والفياضات بالناحية الوهرانية:

وغزوا[3] على بني شقران في الرابع عشر من شوال سنة أحد وستين ومئتين وألف[4] ولم ينالوا منهم شيئاً لدخولهم في الغيط والكهوف والشعوب ولما أن دخلوا في طاعاتهم عاقبوهم بأخذ الأموال الكثيرة وفي سنة أربع وثمانين ومئتين وألف[5] وقعت مسغبة كبرى ومجاعة شديدة عظمى مات منها خلق كثير من الآدميين

(1) 1300هـ/ 1883م.

(2) هناك انقطاع في تتابع الأحداث.

(3) أي أغاروا. والمقصود حملة الفرنسيين على بني شقران.

(4) 1261هـ/ 1845م.

(5) 1284هـ/ 1867م.

والمواشي والدواب لعدم الأقوات والعشب والمراعي. لأن المطر لم ينزل في تلك السنة قط حتى فقد الحب ولم يوجد إلا عند بعض الناس الفلاحين وتجار اليهود والنصارى ولولا أنه وجد عند هؤلاء لمات أكثر الخلق وهذا من لطف الله ورحمته بعباده وأكلوا خشاش الأرض كالبيوش والسلاحف والضفادع والسراطين حتى أنه لم يبق خشاش على وجه الأرض وأكلوا الكلاب وميتة الدواب وبلغنا منهم من أكل ميتة الآدمي وسارعوا في بيع العقار والحلي والسلاح والأمتعة وأواني البيت المحتاج إليها بأبخس ثمن ووقع في الناس الرعب والفزع والهرج والجزع وجال بعضهم في بعض وتشتتوا وافترقوا في الطرق والجبال والمدن والقرى ذكوراً وإناثاً ومن أجهده الجوع في مكان مات فيه عامرا أو غامرا وأكلته الكلاب والسباع وهوام الأرض ومن العجب أن من أجهده الجوع وشبع مات ولا يؤثر فيه الأكل ولا يفيده وغالب الأموات لم يدفن بل بقي على وجه الأرض حتى تأكله السباع لعدم قدرة الأحياء على دفن الأموات وكم من امرأة تزوجت بغير ولي وصداق وكم من شريفة تزوجت برعاع الناس وخسيسهم وأوباشهم وكم من رجل تزوج زوجته مدعياً أنها قريبته وأنه وليها وذهبت أنا عبد الله ذات يوم من أيام الله إلى إيفكان[1] فوجدت المرة بعد المرة الكلاب والذياب يأكلان في الأموات مع الطريق وفي السنة الثانية وهي سنة خمس وثمانين ومئتين وألف[2] ظهر الوباء في الناس ومات منهم خلق كثير وذلك أن الضر ينزل أولاً على القلب فينشأ عنه القيء وإسهال البطن فيموت الآدمي بذلك وفي سنة

---

(1) إفكان هي قرية عين فكان القريبة من سهل غريس الواقعة إلى الشرق من وادي الحمام جنوب هاشم الغرابة وشمال الوصيرات.

(2) 1285هـ/ 1868م.

المسغبة مات العلامة ولي الله وشيخ الطلبة السيد عبد القادر بن الحمياني[1] ـ رحمه الله ـ وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف فاض وادي الحمام فيضة كبيرة أخذ فيها دوار الزمامرة بما فيه من الرجال والنساء والأموال والأمتعة ولم ينج من أهله إلا القليل، وكان ذلك وقت الصيف والناس يحصدون وذلك أن الرعد تكلم في القبلة عشية الأربعاء وهم نازلون بمكان منبطح من الأرض بلصق الواد آمنون من حملته في ذلك الوقت وكنا نقرأ نحن وطلبتهم في المعسكر فعوشرنا يوم الأربعاء فخرج طلبتهم من المعسكر عشية الأربعاء ومعهم السيد حواء ولد السيد أحمد بن حواء بن يخلف ذاهباً عند بعض قرابته بالدوار المذكور فصكهم[2] الماء ليلة الخميس سحراً وهم نيام بحيث واصل لمحلنا هذا وقت الإسفار.

ثم إن أهل الأموات صاروا يفتشون عليهم في مجرى الواد فوجدوا بعضهم في محلنا هذا وغالبهم في سيرات[3] ثم فاض مرة أخرى في فصل الربيع في رجب الفرد الأصم سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف وذلك أن المطر نزل ليلة الخميس ودام إلى ليلة الجمعة ففاض في تلك الليلة وكسر جميع القناطير التي بناها الفرانسيس وانتشر عن مجراه الأصلي بكثير ومن لطف الله ورحمته لم يضر أحداً وفاضت أيضاً جميع الأودية مثل سيق وغيره وكسرت جميع القناطير أيضاً ولا زالت تلك السنة تعرف بعام القناطير.

---

(1) عبد القادر بن الحمياني ينتسب إليه أولاد سيدي الشيخ بناحية البيض الذين قاموا بالثورة ضد الفرنسيين (1864).

(2) أي: غمرهم وجرفهم.

(3) سيرات سهل يقع إلى الشمال من مدينة باريقو (المحمدية حالياً).

وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف[1] ابتدأ الفرانسيس بناء السد الكائن بالمرج البيضاء بوادي الحمام وفرغوا من بنائه سنة سبع وثمانين ومائتين وألف[2]، واجتمع فيه ماء كثير ودام إلى آخر ليلة الخميس الموفية ثلاث وعشرين من المحرم الفاتح لسنة تسع وتسعين ومائتين وألف انكسر فهلك بذلك خلق كثير من المسلمين واليهود والنصارى وبربر المغرب والمواشي والدواب والأمتعة والخيام بما فيها وكل ما وصله الماء من الأحجار الكبار والأشجار العظام إلا أقلعها وأزالها عن محالها ومقارها وأفسد الأرض التي وصلها بحيث صارت دوامس وشعبا وكهوفًا لا يصلها إلا الطير وما رأينا أعجب من هذا وسبب تكسره أن المطر نزل يوم الثلاثاء الموفى واحد وعشرين من الشهر المذكور ودام بعده إلى يوم الخميس فامتلأ السد بتكرر حملات الأودية والسيول حتى رجع ماء النهر الكبير صاعدا على عقبه بمسافة بعيدة تقرب من مشرع احسين فحينئذ تكسر نصف الليل وسمع له دوي كبير يوقظ النائم ويفزع اليقظان ودفع مع مجراه الأصلي وانتشر يميناً وشمالاً وارتفع على أعلا شاهق وأكمة وخراب وأفسد طريق البابور البري حتى أوقف جريه وسفره واستأنفوا له طريقاً مشيداً ودخل الماء مدينة باريق[3] وأفسد ما فيها من السلع والحبوب وأخذ بعض

---

(1) 1283هـ/ 1866م.

(2) 1287هـ/ 1870م.

(3) باريق يقصد بها بريقو أي مدينة المحمدية حالياً. انفجر السد الذي أقامه الفرنسيون بالقرب منها في 8 فيفري 1885، وقد اعتقد السكان آنذاك بأن انهيار السد يعود إلى كرامة الولي سيدي محمد بن حريز الذي نقلت رفاته من مكانها إلى مكان يقع على بعد 600م من الضريح حتى لا تغمره مياه السد، وقد نظم في هذه الحادثة المروعة الشاعر الشعبي محمد الحريز قصيدا دارجا طريفا نشره الأستاذ عبد الحميد حاجيات بمجلة آمال الخاص =

الديار بأهلها وأما الأموات التي أخذها فرماها مفترقة حيث انتشر الماء في أرض سيرات وغالبها فيما يلي أرض الشراقة، فمن رحمة الله سبحانه أن حكام الفرنسيس أمروا القياد أن يجمعو الناس ويفتشوا على الأموات فمن لم يستره الرمال والحامول[1] وجد ومن سترته[2] لم يوجد إلا بعد أيام ومنهم من لم يوجد أصلاً وجمعوا ي مدينة باريق فمن كان له أهل حملوه ومن لم يكن له أهل أمر الحكام بدفنه وصار فساق المسلمين وظلمتهم يفتشون على الأموات ليأخذوا ما معهم من الثياب ونحوها ويتركونهم عراة ومن العجب أن امرأة شريفة الأصل والنسب من ذوات القدر والحسب، بديعة الحسن والجمال، فريدة العظمة والجلال، من بنات قطب الأولياء الصالحين، وإمام الأتقياء والعارفين وطراز عصابة الأصفياء والخاشعين، السيد دح بن زرفة وجدها بعض من لا يراقب الله وبيديها منفاخ ذهباً وبأصبعها خاتم وبرجليها خلخال فلم يقدر على نزع ذلك لتورم أعضائها بالمياه فقطع يديها وأصبعها ورجليها وأخذ الحلي بتمامه وترك أطرافها مع جسدها وذهب لا أفلحه الله.

وأقام الحكام بأكفان الأموات وغرموا لأهل كل ميت شيئاً من الدراهم جعلوه كالدية لا يفي بنصفها وغرموا قيمة ما أفسده الماء وأتلفه من الأرض وغيرها وهذا النهر كثير الضرر والمصائب شديد البأس والغرائب فلا تؤمن غائلته وطوله، ولا تنقطع غارته وصكته، مع أنه من مطلق الأنهار لا من قواعدها لأن صاحب بهجة

بالشعر الملحون، عدد 4 ـ ديسمبر 1969 ص ص 113 ـ 117.

(1) ما تحمل السيول من طمي وحجارة.

(2) أي أخفاه، التراب والحجارة.

الناظرين وآيات المستدلين ذكر أن عدد أنهار الدنيا الكبار مئتان وسبعون نهراً وعدد العيون الكبار مئتان وثلاثون عيناً وهي في الأرض كالعرق في البدن.

وقاعدة أنهار المغرب الأقصى أم الربيع منبعه من جبل درن وينصب في البحر المحيط وقاعدة أنهار المغرب الأوسط والشلف، وقاعدة أنهار المغرب الأدنى مجرده نهر أفريقية وفي الخريدة لابن الوردي أن بهذا الربع المسكون مائتي نهر كل نهر منها طوله خمسون فرسخاً إلى ألف فرسخ فمنها ما يجري من المشرق إلى المغرب وعكسه ومنها ما يجري من الشمال إلى الجنوب وعكسه وكلها تنبع من الجبال وتنصب في البحار فمن الأنهار العظيمة بالمشرق النيل والفرات والدجلة وسيحان وجيحان أخرج مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: إن النيل والفرات يخرجان من أصل سدرة المنتهى وفي تفسير الكواشي أن دجلة نهر ماء أهل الجنة والفرات نهر لبنهم والنيل نهر خمرهم سيحان عسلهم وإن هذه الأنهار تجري من الكوثر فالنيل المبارك ليس في الدنيا أطول منه لأنه مسيرة شهرين في الإسلام وشهرين في الكفر وشهرين في البرية وشهرين في الخراب، وفي هذه السنة واشهر الذي فاض فيه نهر الحمام المذكور فاض فيه نهر تليلات ولم يحصل منه ضرر كثير وفي عشية الأحد ثاني عشرين من ربيع الثاني من سنة اثنين وثلاثمائة وألف فاض نهر السيق بعد أن كسر سداه الأعلى والأسفل ففعل أكثر من وادي الحمام بأضعاف مضاعفة غير أنه لم يحصل موت ومن لطفه تعالى بعباده أن المطر كان كثيراً متوالياً قبل فيضه ولما قرب فياضه انقطع المطر واشتد الحر، ومن لطفه أيضاً أن كل من فر من داره سقطت وكل من بقي بها لم تسقط.

9. ذكر بعض الأمم والقبائل التي استوطنت المغرب:

ولنذكر هنا قصص بعض الملوك السابقة والدول السالفة، وما جرى لها وعليها مختصراً لذلك من عجائب الأخبار، في لطائف الأسفار، للشيخ الحافظ محمد أبي راس الناصر المعسكري فيقول بقوله أن أولى مدن هذه المدن الكبيرة، والثغور الشهيرة، بالمغرب الأوسط مغراوة[1] وبنو يفرن[2] ومغراوة قبيلة عظيمة من زناتة مشهورة الذكر، قديمة الفخر، من قبل الإسلام نسبة لمغراو بن يصلين شقيق يفرن قال الشيخ علي بن أبي زرع في القرطاس[3] يفرن ومغراو أخوان شقيقان ابنا يصلين ابن مسروق بن زاكين بن ورسيج بن أجانا بن أزنات.

وهاتان القبيلتان كانتا أكثر عدداً وأقوى ملكاً وجنداً وقوي تصرفهم في أراضي المغرب من طرابلس إلى المغرب الأقصى، وأول سكناهم طرابلس والملك بها لبني خزرون منهم ثم تصرفوا في أرض المغرب فملك بطائح أفريقية بنو صغلاب وصغلاب هذا كان في زمان النبي ﷺ وملك بنو ورسفين مليانة وبنو الخير وهران وبنو عطية بفاس وبنو فلفول بجلماسة وبنو القرطاس بالبصرة وبنو منديل بمازونة

---

(1) مغراوة: قبيلة بربرية شهيرة مركزها الأصلي بناحية بني ورسينان، ما بين مليانة وتنس وملتقى وادي الشلف بوادي الفضة، بقي منها بطن يعرف بنفس الاسم جنوب غرب مستغانم مجاورة لقبيلة عبيد الشراقة المخزنية.

(2) قبيلة زناتة إحدى القبائل البربرية الكبرى ينسب إليها تأسيس مدينة تلمسان قبل الفتح قضى على إمارتهم بها جوهر الصقلي قائد جند الفاطميين في النصف الأول من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي بنواحي تلمسان.

(3) العنوان الكامل هو الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.

فمن بني عطية زيدي وهو الذي اختط مدينة وجدة سنة أربع وثمانين وثلاثمائة[1] ولما مات اقتسم ابناه الفتوح وعجيسة الباب الأخر المسمى به إلى الآن أيضاً إلا أنهم أسقطوا العين وأتو بقاف بدل الجيم، يقال باب قيسة، ومن قبائل مغراوة بنو قوط بين الزاب وجبل راشد لهم هناك قصور كثيرة منهم قبيلة بنو مسون من أرض الفحامة وأخرى بإزاء قسنطينة ومنهم سنجاس وقبيلة حنا وبجاية ومن أشرافهم قبائل كثيرة حيث ينصب نهر الشلف في البحر فيهم أولياء عظام كالشيخ الأكحل والشيخ أعفيف[2] والشيخ محمد بن شاعة[3] والشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن واضح وغيرهم، وأما الشيخ أبو يعقوب العشعاشي فقد قال الشيخ موسى بن عيسى قد ظهر شرف أبو يعقوب آخر المئة السابعة قال الوالد وفي قلبي منه شيء من مغراوة الكنادرة وأهل عين الفرس غربي غريس ومنهم أهل الكرد وفرقة مينا تجاور بني راشد من المشرق وكانت منهم فرقة بأرض أولاد خالد تركوا وتناسلوا وهناك مدينتهم خرابا، وقد انقرض بعض من ذكر وبعضهم اندرج في القبائل والبعض بقي معروفا إلا أن الدول جرت عليهم أذيالها فانسوهم ذكر المجد وترف العز فصاروا من قبائل الغرابة وأول من اختط وهران خزر المغراوي بن حفص بن صولات بن وزمار بن صقلاب سنة تسعين من القرن الثالث ولما مات ولي ابنه محمد ثم الخير بن محمد بن خزر وفي سنة ست من القرن الرابع املكها من يد مغراوة ازديجة وعجيسة قبيلتان من البربر من بطون البرانس أبنا أمازيغ بن كنعان وكانت مواطن ازديجة وعجيسة قبلة

(1) 384هـ/ 994م.

(2) عفيف شيخ جليل يؤكد ضريحه في قرية سيدي علي، وهو محل تقدير وتعظيم من طرف عقبه ومريديه.

(3) محمد بن شاعة عرف بالعلم والصلاح، وهو من تلاميذ الشيخ الأخضر بن خلوف الشقراني (ق 10هـ/ 16م) المشهور بشعره الملحون، وصاحب قصيدة المعركة مزغران في الجهاد وضد الإنسان (1558).

هيدور وهو جبل وهران وبقيت في أيديهم سبع سنين ثم أخذها منهم داوس بن صولات عامل عبد الله المهدي، ثم أخذها يعلا بن محمد اليفراني ففتحها عنوة وأحرقها وذلك سنة اثنين وأربعين وثلاثمائة وصارت خراباً، ثم بناها وانتقل إليها بأهله وولده من إيفكان أحد أراضي بني راشد ولما قتله جوهر قائد المعز بن إسماعيل نزل على مدينة إيفكان فخربها سنة أربع وأربعين وثلاثمائة[1].

10 . ذكر يوسف بن تاشفين وما قام به من فتوحات:

ثم أن وهران رجع ملكها مغراوة بعد عمال الشيعة واستمرت بأيديهم حتى أزالها من أيديهم يوسف بن تاشفين ويقال لرهط هذا الملك لمتونة نسبة إلى لمتون الصنهاجي بضم الصاد لا غير وأجاز بعضهم الكسر ويقال لهم الملثمون قال اليافعي لأن أصلهم من حمير وكانوا يتلثمون ويقال لهم المرابطون مساكنهم بين البرابرة والسودان من البحر المحيط الغربي إلى غدامس وفزان قبلة طرابلس وبرقة وكانوا على دين المجوسية وقد فشي فيهم الإسلام بعد فتح الأندلس ثم إن الأمير يوسف صعبت عليه المصامدة وكانت أرض مراكش آنذاك لا بناء فيها ولا بساتين فنزلها بالخيام سنة أربع وخمسين وأربعمائة[2] وبنى لها قصبة صغيرة ومسجداً للصلاة فهو أول بناء بها وبقي يحاربهم حتى ذللهم.

ثم ذهب إلى فاس سنة اثنين وستين[3] فزحف إليها أميرها بكار بن إبراهيم المغراوي جنوده فهزمهم وقتل منهم نحو أربعة آلاف ودخل فاسا عنوة وأسرف

---

(1) 344هـ/ 955م.

(2) 354هـ/ 965م.

(3) 362هـ/ 972م.

في قتل مغراوة حتى أنه قتل بالجامعين الأعظمين ما يزيد عن ثلاثة آلاف وهدّم الأسوار التي كان فصل بها ابنا زيدي الفتوح وأخوه بين العدوتين وصيرها مدينة واحدة وحمل أهل فاس على تكثير المساجد.

ثم زحف إلى تلمسان في سنة ثلاث وسبعين[1] فلقيه ملكها العباس بن بختي المغراوي فهزمه وقتله وقتل جنوده من مغراوة وبني يفرن، لأن تلمسان كانت بين هاتين القبيلتين وأصلها لبني يفرن فقط واستعمل عليها يوسف محمداً بن نعمر اللمتوني.

ثم تخطى إلى وهران فأخرج منها ملوكها بني الخير من مغراوة أيضاً ثم انتهى إلى الجزائر وجعلها حداً بينه وبين ملوك البككانة من صنهاجة للقرابة التي بينهما فانضمت له الممالك منها إلى أرض السودان إلى البحر المحيط إلى جبل الذهب وكلها بسط فيها العدل وأبطل منها المكس.

ثم ملك الأندلس من مدينة أفراقه قاصية أرض الفرنج إلى البحر المحيط وذلك مسيرة شهر وثلاثة أيام طولاً والعرض نحو العشرين يوماً.

وقد بايعه بها ثلاثة عشر ملكاً فصار يخطب له على ألف منبر وتسعمائة منبر وكان بمكان من الزهد فلا يلبس إلا الصوف ولا يأكل إلا خبز الشعير بالبان الإبل ولحومها وكتب على سكته ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه.

ومن أشهر حروبه غزوة زلاقة بالأندلس[2] وسببها أن ملوك الطوائف لما

---

(1) 473هـ/ 980م.

(2) معركة الزلاقة (479هـ/ 1086م) الحق فيها يوسف بن تاشفين الهزيمة بألفونسو السادس قرب بطليوس، وأوقف زحف النصاري على مدن الأندلس بعد إستيلائهم على طليطلة =

تنافسوا وغزى بعضهم على بعض وأفضى أمرهم إلى فساد وخراب البلاد وصار بعضهم يستعين على بعض بالطاغية اذفونش بن هرقل لعنه الله وصاروا يؤدون إليه الضرائب الكثيرة لمكان الفرقة واختلاف الكلمة حتى استخلص الروم كثيراً من البلدان بأهلها ومالها ولما استولى على طليطلة بعث له المعتمد بن عباد وهو أكبر ثوار الأندلس آنذاك الضريبة على العادة فلم يقبلها وسولته نفسه ملك البلاد وسار إلى سرقسطة فحاصرها وبذل أميرها المستعين ابن هود مالاً ليرجع منها فأبى وقال البلاد والمال لي وضيق على الأندلس جميعاً ووقف على البحر وقال هذا آخر الأندلس.

ولما أن علم الثوار ذلك وعلموا أنه أحيط بهم تشاوروا في الاستصراخ بأمير المؤمنين يوسف بن تاشفين فبعضهم أجاب وبعضهم كره فقال المعتمد إنكم كرهتم مجيئه ليلاً يملك الأندلس فوالله إن رعي إبله أفضل إلي من رعي خنازير اذفونش فكتب له المعتمد يستصرخه فبايعه الثوار على ذلك والعلماء ولما وصلت رسلهم ليوسف بن تاشفين بمراكش اهتز للجهاد وأبرز الفساطيط والسرادقات وخرج منها أوائل سنة تسع وسبعين وأربعمائة بعساكر المغرب والمرابطين والعلماء وسار حتى وصل سبتة فمنعه من الجواز أميرها ابن سكوت من بقية موالي آل حمود الإدريسي فسرح له يوسف ولده المعز فحاربه وقبض عليه وضرب عنقه وعثر على ذخائره وفيها خاتم يحيى بن علي بن حمود وبه انقرضت دولة الأدارسة من المغرب ثم أن يوسف قرن الأساطيل على قرضة تجاور سبتة بعضها إلى بعض فصارت كالقنطرة على البحر فمر عليها الجنود ونزل بالجزيرة الخضراء ووافته جيوش الأندلس وثوارها مثل ابن عباد وغيره وعلماؤها كابن رشد وابن حمدون وابن الحاج وغيرهم.

=

(478هـ/ 1085م).

ولما أخبر اذفونش بجواز يوسف له أرسل إلى ابن رشفين لعنه الله وكان محاصراً لطرطوشة وإلى ابن هانس وكان محاصراً لبلنسية فأتوه بالجيوش وبعث إلى جنود قشتالة ومنها كتب لاذفونش بالإسلام أو الجزية أو الحرب فقال للمرسول قل له لا يتعب نفسه إني قادم إليه وقصد كل مهما نهر زلاقة فصار بينهما يشرب من الكل وبقوا ثلاثة أيام على ذلك والرسل تختلف بينهما إلى أن اتفق رأيهما في آخر يوم من جمادى الثانية وذلك يوم الخميس على أن الحرب يوم الإثنين الرابع من رجب[1] وذلك أن الطاغية كتب له الجمعة عيدكم والسبت عيد اليهود والأحد عيدنا فالحرب يوم الإثنين وأما هؤلاء الأيام فلا نحدث فيها شيئاً وذلك مكيدة منه لعنه الله وقد أرشد الله يوسف إلى هذه المكيدة فبات رحمه الله ليلة الجمعة على الأهبة فأمر أن لا ينام أحد من الجنود فبات على التقية وكل في مركزه فبينما هم كذلك حتى غشيهم بروق الصفاح وأضلهم سحائب الرماح وأوقدت نار الحرب وثبت كل من الفريقين لصاحبه حتى وصل سهامهم جيوش الأندلس وكان للمعتمد بن عباد حملات عليهم لا يقدر أحد أن يأتي بمثلها وقد أصابته جراحات وقد تذكر ابناً صغيراً يقال له هشام فقال يا هاشم قد هشمتني الرماح وبالجملة قد أظهر من شجاعة ما أدهش عدوه.

ثم هزم الله الروم بعد الزوال وثنت أعنتها حتى أنه لا يدري أحد أين وجد وركب السيف أعناقهم فهلك منهم ما لا يحصى عدده إلا من خلقهم وصيرهم على هذه الحالة.

واستولى المسلمون على محالهم بما فيها من أصناف الأموال قال الشيخ علي بن

---

(1) وقعت المعركة يوم 12 رجب 479هـ/ 1086م.

أبي زرع في قرطاسه وكان عدد عساكر اذفونش ثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل فقد الكل ولم ينج إلا أذفونش في مائة فارس وبذلك أذل الله الشرك في الأندلس فلم تقم لهم قائمة نحو الستين سنة، قال وأمر يوسف بقطع رؤوس القتلى فجمعت كالجبال فبعث إلى إشبيلية عشرة آلاف وإلى قرطبة بمثلها وإلى بلنسية مثلها وإلى سرقسطة كذلك ومرسية كذلك وقسم على مدن العدوة أربعين ألف.

وأشرفت الجنود على طليطلة واكتسحوا مسارحها وهدموا أسوارها ولو أراد الله فتحها لفتحت لا يسأل عما يفعل.

ثم رجع يوسف إلى مراكش بالنصر والعز وقد خلف عسكراً عظيماً بأشبيلية وقد زينت الشام ومصر وبغداد والحرمان وغيرهم وامتلأت سروراً وفدت عليهم بشائر الوقعة وقد بعث إليهم المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله الخليفة الإمام العباسي وجدد له العهد لأن أمراء لمتونة كانوا من شيعة الخلفاء العباسيين وقد قدم بعد ذلك حجة الإسلام أبو حامد الغزالي لزيارته من العراق ولما بلغ الإسكندرية سمع بموته مات رحمه الله سنة خمسمائة![1]، ودفن بمراكش وقبره بها مشهور يزار وملك ثماني وأربعين سنة[2]، قال الخفاجي في شرح الشفا وهو أول من تَسَمَّى بالمغرب بأمير المؤمنين وولي ابنه أبو الحسن على سنة واحدة من القرن السادس[3] له جارية اسمها قمرة وكانت له سيرة حسنة وأحوال مستحسنة وقد بلغ في الملك أكثر من أبيه حتى أنه خطب له كما في القرطاس على

---

(1) أي وفاة يوسف بن تاشفين (500هـ/ 1106م).

(2) حكم يوسف بن تاشفين منذ أن استقل عن عمه أبي بكر بن عمر مدة ناهزت نصف قرن (453 ـ 500هـ/ 1061 ـ 1106م).

(3) 501هـ/ 1107م.

ألفي منبر وثلاثمائة منبر وفتح مدينة يلدم من جزيرة صقلية سنة اثنين وعشرين وخمسمائة وبنى سور مراكش وكان شديد المحبة لابن[1] رشد وقد ولاه القضاء بثغر طوبة سنة تسع ثم عزله بعد ثلاث سنين فحينئذ شرع ابن رشد في شرح العتبية وسماه التحصيل والبيان وفي أيامه وقعت فتوحات وهزائم للعدو وفي أيامه ظهر الشريف المهدي بن تومرت القائم بدعوة الموحدين فدخل الدولة هرم بسببه وكثر فيها الأرجاف وتوفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة[2].

وولي ابنه تاشفين وقصته وما وقع له مع عبد المؤمن بن علي معروفة ما تقدم وبويع بمراكش ابنه ابراهيم فلم يتم أمره، ثم بويع عمه إسحاق بن علي وزحف للموحدين فقتلوه وبه انقرضت دولتهم[3]، فمدة يوسف وابنيه تسعون سنة والبقاء لله.

ثم ملكها الموحدون وهم أتباع الإمام المهدي بن تومرت[4] الملقب أمغاز واسمه محمد بن عبد الله بن وجليد المرغي نسبة إلى مرغة أحد بطون المصامدة هكذا قال ابن رشيق وقال غيره أنه كان من أهل البيت وكان تمهر في التوحيد على

(1) ابن رشد العالم والفيلسوف الشهير، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ولد بقرطبة سنة 520هـ 1126م، له العديد من الكتب في الفلسفة والطب والفقه والعلوم، توفي بمراكش سنة 595هـ 1198م.

(2) 537هـ/ 1142م.

(3) قتل اسحاق بن علي 447هـ/ 1146م.

(4) ابن تومرت، ولد حوالي 484هـ - 1091م، توفي سنة 524 / 1129م، نهض بالدعوة الموحدية بعد رجوعه من المشرق، اتخذ مقره بجبال الأطلس بمواطن قبيلة مصمودة التي ينتسب إليها، أدت دعوته كما هو معروف إلى تقويض دعائم دولة المرابطين وتأسيس الدولة الموحدية ببلاد المغرب على يد عبد المؤمن بن علي الكومي.

طريقة الأشعري وذهب إلى رأيه في تأويل المتشابه من الدين والأحاديث بعد أن كان من أهل المغرب بمعزل عن التأويل اقتداء بالسلف محملهم على رأي الأشعري وواجب تقليده. وهو أول من أدخل ذلك للمغرب وألف في طريق الأشعري كتاباً وسماه المرشدة وسمى أتباعه بالموحدين تعريضاً بلمتونة[1] لعدولهم عن التأويل وكان حصوراً لا يأتي النساء ملصق الفخذين لا يركب الحمار إلا على جهة ويلبس العباءة المرقعة ولم تحفظ منه فلتة في البدعة إلا موافقة الإمامية أهل الشيعة في القول بالإمام المعصوم، وفي ابن خلدون وابن الخطيب أنه كان يزعم أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام وينكر كتب الرأي والتقليد، وهو أول من فسق... توفي يوم الأربعاء ثالث عشر رمضان عام أربعة وعشرين وخمسمائة[2] ودفن بمسجده بلصق[3] داره وعهد بالخلافة لعبد المؤمن بن علي وبعد موته استمرت المملكة لبنيه بعده ثم انقضت سنة ثمان وستون وستمائة

ثم بعد ملك الموحدين لوهران ملكها بنو زيان أحد بطون بني عبد الوادي أحد شعوب بني يادين فاستولى عليها يغمراسن[4] لما ملك تلمسان وامتد ملكهم إلى دلس وهي قرية غربي بجاية بساحل البحر إلا أن بني زيان ومن قبلهم لم

---

(1) لمتونه القبيلة التي ينتسب إليها المرابطون والتي ناصبها ابن تومرت العداء واتهمها بالعدول عن جادة الشرع.

(2) كانت وفاة محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية سنة 524هـ/ 1129م. ولقد تحامل صاحب المخطوط على محمد بن تومرت، متبنيا مواقف خصومه.

(3) أي الملاصق أو المحاذي، بتينميل بالاطلس الكبير جنوب شرق مدينة مراكش.

(4) يغمراسن هو أبو يحيى يغمراسن بن ثابت من بني عبد الواد ولد في 603هـ/ 1206م. وتوفي 681هـ/ 1283م. تولى الملك 633هـ/ 1236 م. في فترة عم فيها الاضطراب، وقد أبدى مقدرة عظيمة وسياسية حكيمة في إرساء دعائم حكمه وتثبيت أسس دولته.

يستوطنوها وإنما كانوا يبعثون لها العمال حتى أخذها الاسبانيول منهم كما يأتي وعجز ملوك بني زيان على إخراجهم منها.

11 . ذكر ولي وهران سيدي الهواري:

وفي أيام بني زيان هؤلاء كان قطب الأولياء ورأس الزهاد وعالم وهران وعاملها صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة المقطوع بولايته الشيخ محمد المغراوي المشهور بالهواري[1] نفعنا الله به آمين كان كثير السياحة أخذها بفاس عن موسى العبدوسي والقباب وبجاية عن الشيخ أحمد بن ادريس والشيخ عبد الرحمن الوغليسي وكان يكثر الثناء على أهل بجاية لحبهم الغرباء ولتحفظهم في معاملتهم.

ولما حج أخذ بمصر عن الحافظ العراقي وغيره وجاور بالحرمين مدة ثم سافر للقدس وجال بالشام وبقي بالجامع الأموي مدة بدمشق وكان في سياحته يأوي للغيظ فتأوي إليه الوحوش وعادية السباع ثم استقر أخيراً بوهران[2] بلد أسلافه مثابراً على العلم والعمل وانتفع به خلق كثير ولما قرب أجله كثر كلامه بالتبشير بسعة عفو الله قال الشيخ أحمد بابا في الذيل كان مقطوعاً بولايته وألف كتابي التنبيه والسهو ولما ألف السهو الذي جعل عليه التنبيه أخذه الفقيه أبو زيد

(1) سيدي محمد بن عمر الهواري المغراوي عالم وهران ووليها، ولد بهوارة قرب مستغانم وأخذ العلم ببجاية وفاس وتلمسان، وتجول بالمشرق، فحج وزار القدس وعاش حياة صلاح وتقشف وزهد، وامتنع عن الاتصال بالحكام، فرفض دعوة أبي فارس السلطان الحفصي، توفي بوهران (843هـ/ 1439م) ودفن أسفل حي القصبة العتيق حيث لا يزال ضريحه هناك.

(2) أي: الأجمة أو الأشجار الملتفة.

عبد الرحمن[1] مقلاش فأصلح فيه أشياء وزناً وإعراباً وأتى به للشيخ فقال يا سيدي أصلحت سهوك فقال الشيخ هذا السهو يقال له سهو مقلاش وأما سهوي فهو سهو الفقراء يبقى على ما هو عليه وإنما ينظر فيه للمعنى ومن أين لمحمد الهواري بالعربية والوزن وأنشد في المعنى:

وما ينفع الإعراب إن لم تكن تقي   ومـا ضر التقـي لسـان معجـم

وذكر في التنبيه أن الدعاء عند قبر أبي مدين مستجاب وذكر بعضهم أنه كان آية في الكرامات منها أن بعض طغاة العرب أخذ مال أصحابه فبعث إليه فأخذ رسول الشيخ وقيده فبلغه ذلك فقام من مجلسه وقد اسود وجهه من شدة الغضب ودخل خلوته فقال تلميذه التازي سمعته يقول مفرطح مفرطح يكرره مراراً وفي وقته قام الظالم يلعب بخيله في عرس والناس ينظرون فإذا رجل أبيض الثياب فنزعه من فوق سرجه وضرب به الأرض. فإذا هو مفرطح أي دخل رأسه في جوفه من شدة ضربه منكساً فأطلقت أمه رسول الشيخ وقالت تخاطب ولدها الميت حذرتك دعوة الشيخ فلا حيلة فيك اليوم.

وسبب دخول النصارى لوهران أن الشيخ دعا عليها بذلك لبغي أهلها على ولده حيث قتلوه فأسلمها للنصارى لأنه سلطان مصرها ومتولي أمرها وكان من الذين لو أقسموا على الله لبرّ الله قسمهم.

تنبيه لم يدخلها النصارى بفور دعوته بل دخلوها بعد وفاته باثنين وسبعين

(1) أبو زيد عبد الرحمن مقلاش دفين وهران، أحد العلماء المعاصرين للشيخ العالم سيدي محمد الهواري ولي وهران.

عاماً لأنه توفي سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة ودخلوها سنة أربع عشر وتسعمائة[1].

تنبيه: ما مر لنا أن الشيخ مغراوي هو الذي لاين صعده وغيره ولعله أنه ينسب لهوارة أولاد هوار بن أديغ أحد قبائل البربر لتربيته فيهم وأول أمر هوارة طرابلس ثم انتشروا في الأرض فمنعهم من كان ملكاً برويلية ومنهم من سكن بلاد كوكة من أرض السودان ومنهم أهل زمور ومنهم الحناشة أولاد بعرة بن حناش أهل قلعة أسنان وتزيوا بزي العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل ومنهم بنو علان كانوا أهل رياسة بالجزائر ومنهم بنو ذي النون ملوك طليطلة ومنهم نفر بمصر وآخر ببرقة ومن أشهرهم بالمغرب أهل الجبل المطل على البطحاء[2] وفيه مسراتة وغيرها فمن بطونهم كأهل برج عياش وأرماسة وأتلوانت ومنهم أهل مستغانم كانوا بالبطحاء فهربهم لها أسويد ومنهم كثير بالمغرب الأقصى كالذين بإزاء نهر ملوية ومن علمائهم القاضي ابن عبد السلام شيخ ابن عرفة والصباغ وعبد الله بن أحمد تلميذ الباجي والشيخ أبو عمران الملقب طبيب هوارة أخذ عن الشيخ عبد القادر الجيلاني.

ثم إن الشيخ الهواري خلفه تلميذه بوهران الشيخ ابراهيم التازي[3]

---

(1) 843هـ/ 1439م، 914هـ/ 1509م.

(2) البطحاء: مدينة إسلامية اندثرت آثارها، يوجد مكانها بنواحي غليزان، ومن الراجح أنها تقع بمكان محطة سكة الحديد بالمطمر الحالية.

(3) إبراهيم التازي أصله من تازة بالمغرب الأقصى، عاش بوهران وكان من تلاميذ الشيخ الهواري؛ أخذ العلم ببجاية وفاس ورحل إلى المشرق ثم استقر بتلمسان، بعدها انتقل إلى وهران ولازم الشيخ الهواري وعد من تلاميذه، عرف بالصلاح والعلم ومال إلى التصوف أخذ عنه أحمد زروق، وعندما توفي الشيخ الهواري خلفه في التدريس والمشيخة، وكان له الفضل في جلب الماء إلى وهران، توفي بوهران 866هـ/ 1462م، ونقل جثمانه بعد ذلك إلى

ونجبان الدين والأدب وكثير اللجين والذهب كان فقيهاً بارعاً وعلامة جامعاً محدث لغوي بياني أصولي نحوي صوفي سني خاشع حجة لا يدافع أمام العباد الملحق العوام بالأفراد والأحفاد بالأجداد ولما حج قام له علماء المشرق وأولياؤه على ساق واسم أبيه علي اللواتي نسبة إلى قبيلة من البربر كان ذا نظم رائق وتأليف فائق صاحب كرامات عجيبة وأحوال غريبة وأحسن الناس صوتاً وتجويداً كان إذا قرأ البخاري أيام مجاورته بمكة أنجاش الناس إليه وأخذ بمكة عن تقي الدين الفاسي وبالمدينة عن أبي بكر القرشي وبتونس عن الحافظ العبدوسي وبتلمسان عن ابن مرزوق وبوهران عن الهواري وتتلمذ عليه ولازمه فكان في طريقه يذهب وعلى قالبه يضرب وقد أخذ عنه التنسي والسنوسي والتالوتي والتونسي وزروق وغيرهم توفي تاسع شعبان سنة ست وستين وثمانمائة[1] وقد بقي في ضريحه بوهران خمسين سنة ولما ملكها الكفار سكن بعضهم عنده فرأى مايكره فأخبر بطريقهم وقد وافق ذلك قدوم أهل القلعة عليه بالضريبة فأمرهم بأخذه ودفنوه بمدينتهم وضريحه بها مشهور

وكان الشيخ التازي جلب لوهران ماء عظيماً قد جمعه من محاله بتدبير اقتبسه أي اخترعه وابتدعه بتوفيق من الله وإعانته وقد كان أهل المدينة قبل ذلك تذهب المرأة بكرة للماء فلا ترجع إلا بعد الزوال لكونه قليلاً قليلاً وعليه زحام ونوبة ولما كمل الشيخ ما قصده في الماء أطعم الأطعمة الكثيرة وامتلأ الثغر سروراً ويقال أنه طلسم عليه فلا يعرف من أين مجيئه وكان يقترض المال الكثير

=

قلعة بني راشد تجنبا لعبث الإسبان بقبور المسلمين كما هو وارد في المخطوط.

(1) 866هـ/ 1462م.

لأجرة العملة فلا يدري من أي يوفيه وقد قيل له أنت فقير وعملت عمل الملوك في جمع هذا الماء فقال مساعدة الزمان ومساعفة الإخوان رحمه الله ونفعنا به آمين.

12 . قيام دولة بني مرين:

ثم أخذها من يد بني زيان أبو الحسن المريني قال الشيخ علي بن أبي زرع في القرطاس أن بني مرين من ذرية ماخوخ الزناتي ثم قال في موضع آخر إنهم من نسل قيس بن غيلان وهم كثيرون منهم مقر بغدامس وآخرون بالحامة ومنهم أولاد الشيخ العبدلي وأولاد الشيخ علي ابهلول بمجاجة وأولاد السايح بمازونة وبنو مرين هؤلاء من أقوى القبائل وأنجدها وأفرسها وأصل مواطنهم قبلة زاب البريقية وفي سنة تسع وستمائة دخلوا المغرب فنزلوا من فقيق إلى تفلالت إلى ملوية وفتح أبو الحسن المريني تلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة[1] وقدم وهران سنة ثمان وأربعين[2] فأمر ببقاء البرج الأحمر[3] وبرج المرسي[4] ثم رحل لتونس وقد دخلها في يوم مشهود ثم إنه قد غزى العرب بالقيروان فكانت الدائرة عليه وتوفي سنة اثنين وخمسين ودفن بسلا ثم ملك ابنه أبو عنان واستمر الملك فيهم إلى حدود سنة سبع وسبعين وثمانمائة فمدة ملكهم مائتا سنة وسبع وستون.

---

(1) 737هـ/ 1336م.

(2) 748هـ/ 1347م.

(3) عرف ببرج الأحمال، يعود بناؤه إلى الفترة الإسلامية، وقد وقع تجديده من طرف الإسبان، فأصبح يضم العديد من المباني العسكرية فعرف بالقصر الجديد.

(4) برج المرسى: أسس من طرف الإسبان عام 965هـ/ 1557م. على ساحل البحر لحماية الشاطئ المقابل لوهران المعروف بخنق النطاح، وقد هدم هذا البرج خلال توسيع ميناء وهران في الفترة الأولى للاحتلال الفرنسي.

13 . استيلاء الإسبان على وهران:

ثم إن كفار إسبانية أخذوا وهران من يد بني زيان سنة خمس عشرة من القرن العاشر[1] غدراً بمداخلة يهودي ونكبوا أهلها بين قتل وأسر وقال الشيخ أحمد بابا في الذيل سنة أربع عشر قال: وفيها مات صاحب المعيار وزاد أن ذلك في آخر المحرم منها. وقد أخذوا برج المرسى قبل ذلك بأربع سنين فبرج مرجاجو[2] وبرج رأس العين[3] والبرج الجديد[4] وغيرها كلها اختطها الكفار ما عدا برج اليهودي[5] فاختطه يهودي وبرج المرسى والبرج الأحمر فاختطهما أبو الحسن المريني كما مرّ لكن الكفار زادوا فيهما فاتسعت دائرتهما وذكروا أن البرج الجديد أقامته كافرة بتسعين ألف ريال كبيرة وذكروا أنها صدقت مالها لا تقبل الله منها إنما يتقبل الله من المتقين. ومريكشها أي كفرة وهران ذُك لعنه الله وقد شن الغارات في البلاد وأظهر فيها ملكه من البر والبحر الفساد حتى صار

---

(1) 877هـ/ 1472م.

(2) برج مرجاجو أقامه الاسبان أثناء حكمهم لوهران في نهاية القرن السادس عشر فوق قمة جبل سيدي هيدور « مرجاجو » وقد استخدم في بنائه عمالاً من قبيلة حميان.

(3) برج العيون: شيد سنة 915هـ/ 1509م، وهو يقع إلى الجنوب الشرقي لمدينة وهران بأعلى وادي الرحى على الضفة الشرقية، أطلق عليه الإسبان اسم برج القديسين.

(4) البرج الجديد: قام بتشييد هذا البرج جنود الحامية الإسبانية بوهران سنة 1105هـ/ 1693م على الضفة الشرقية لوادي الرحى بهدف مراقبة المسلمين المقيمين بقرية افري الواقعة على الضفة اليسرى لنفس الوادي.

(5) برج اليهودي: يعود تاريخه إلى عام 915هـ/ 1509. وقد عرف بهذا الاسم نسبة إلى اليهودي "زواوة سطورة" الذي ساعد الإسبان على الاستيلاء على وهران حسب الرواية الشائعة لدى عامة الناس آنذاك.

شبحا في حلق الدين وقذا في عين الموحدين ورغب من يليه في غرضه الفاني

14 . الإشارة إلى بعض القبائل المتعاونة مع الإسبان:

حتى إنحاش إليه كل رقيق وجاني مثل قيزة وشافع وحيان وغمرة وبني ونزار وأولاد علي وكل من هو ضعيف الإيمان فصاروا شيعتهم وقويت بهم شوكتهم، فكانوا عيونه الذين يتطلع بهم على عورات المسلمين وأعوانه الذين يشن بهم الغارات على الأبعدين ويقتحم حلل المسلمين ودورهم، فيأخذ مالهم وينتهك حريمهم فكان بنو راشد ومن حولهم من الأعراب البعيدة الوطن تارة يعمهم ما يعم القريب وتارة ينجون من ذلك فيفرون بأنفسهم ويظهرون عداوتهم فلا يزال البطريق يرسل إليهم الجواسيس، المعروفين بالفاطيس حتى يرصدوهم له في الأماكن التي تمكن الغارة فيها فيصكهم هناك بخيله ورجله فيقتل المقاتل ويسبي النساء والذراري كما وقع لبني شقران في رمال عين الفرس قبل دخولهم في ذمته والزلامطة والكرط والكثير لا حول ولا قوة إلا بالله ومازال ذلك دأب عدو الله حتى خافته المدون فضلاً عن الحلل لا سيما حيث يقصون عليهم المرجعون الذين يجلبون القلوب للنصارى بأنهم أهل جنود، وآلة وبنود، ومددهم لا ينقطع ورأيهم لا ينصرع، فيكون ذالك داعية للدخول تحت ذمة الكافرين، وكان ذلك دأب الكثير من الأعراب المذكورين.

ومع هذا كانوا يعتقدون أنهم على صريح الإيمان وما هذا إلا تلاعب بالأديان وكيف يكون مسلماً من لا غيرة له على الإسلام ولا همة يأنف بها عن خدمة الكافرين ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون، وكان كثرة ترددهم في البطحتين سيرات وأملاتة وقد

بلغت غارة أعداء الله إلى غريس وتخطوا إلى أسفل سمط ووقعت جنودهم على شعير الطاغية[1] قبلة ضريح الشيخ أبي المهدي عيسى بن موسى بل في سنة تسع وأربعين وتسعمائة[2] دخلوا[3] تلمسان وقاموا فيها نحو الثلاثة عشر يوماً. ثم خرجوا منها مختارين ويقال إن قراب الخالفي هو السبب في دخولهم لها وذلك في الفترة التي كان بين عبد الوادي والأتراك وأما بعد صفائها للأتراك في سنة ست وخمسين[4] وجعلهم الحامية بها أي النوبة فلا طمع للكفرة فيها بل كانوا إذا بلغهم أن الكافر خرج لشن الغارات سارعوا لهد قوته، وكسر شوكته، وربما ضيقوا عليه الحصار حتى يتمكنوا فيه من القتل والأسر فإذا أحس بنزول مخالهم عليه، وتسديد سهامهم إليه، لازم قبره وعرف قدره، وذاك هو الذي عناها فيصبح قبره حيث يقول: نجينا من النار يا رب والنار بين أنصارت دوك وأنصارت قدار أراد بقدار الشيخ محمد أقدّار التجاني الذي ضريحه بدّار مينة وذلك أنه حرض أحيده العبد[5] كبير السويد على غزو هبرة لما يفعلونه من نهب نهب أموال الناس الخارجين عن غرناطة إلى البحر حين يرسون بمرسى أرزيو غيرة منه عليهم نفعنا الله به آمين.

---

(1) أي وادي الطاغية بالقرب من معسكر.

(2) 949هـ/ 1542م.

(3) أي الإسبان.

(4) 956هـ/ 1549م. والصحيح أن تاريخ انتهاء دولة بني زيان وانضمام تلمسان للدولة الجزائرية أثناء العهد العثماني على عهد باي لارباي صالح رايس سنة 962هـ/ 1555م.

(5) أحيدة العبد: اسم أطلق على العديد من قياد قبيلة المحال بجهات الشلف ومستغانم ابتداء من القرن الثامن الهجري، وهذا ما يسمح لنا بالقول أن الشخص المذكور هو أحد قواد هذه القبيلة العربية الأصيلة التي تشتت على يد قوات البايليك لعدم خضوعها لأوامرهم.

يحكى أنهم كانوا يبقرون بطوتهم لكونهم[1] ابتلعوا ماساً أو جوهراً، فواعد أحيدة العبد مرة لختم البخاري يوم الجمعة ولغزو هبرة فأتاه بجند السويد فختموا البخاري وركبوا من حينهم لغزو هبرة فالتقوا بني حي سدّار العامري فانهزمت جيوش هبرة وركبت السويد أكتافهم فقاتلوهم مقتلة عظيمة وفي ذلك يقول شاعرهم أيضا:

ميتـــين أو عشريـــن قعـــدت في مشـــوار
دوار من الملاح معزل دوار الموت أمن الالاه والسبب قدّاره

وهبرة هؤلاء إخوة السويد وقيل من نسل المقداد بن الأسود ﷺ كما في ابن خلدون لكن الذي في نزهة الحادي أن سيدنا المقداد لا عقب له. ثم إن دكّ لعنه الله أكثر الغزو في أرض الإسلام وشرق وغرب فلم يبل بمفترس أي بشجاع من شجعان المسلمين، ولما سمع بذلك باشة الجزاير إبراهيم غزاها وأعلا المدافع على المائدة وهو أول من فعل ذلك فلم يفدها شيء وامتدت يداه إلى ما لم يطمع فيه قبل ولا تحدثه به نفسه حتى صار يغير على البعيد من مصره ويأتي بالسبي من الأقطار إلى قطره حتى أذعنت الناس لنهيه وأمره وقطع سبل المغرب الأوسط وضيق فجاجه قال الشيخ عبد الرحمن الجامعي في شرح أرجوزة الحلفاوي[2]

---

(1) أي بطون الاندلسيين بحثا عن الماس والجواهر التي كان المهاجرون الأندلسيون يبتلعونها خوفا من تعرضهم للنهب، وهم في طريقهم من ساحل البحر نحو تلمسان وقلعة بني راشد ومازونة.

(2) كما هو معروف اشتهر الحلفاوي بقصيدته في فتح وهران للمرة الأولى على عهد الداي بكداش، وقد خصها عبد الرحمن الجامعي بشرح واف، اعتمده أغلب من كتب عن استرجاع وهران عام 1119هـ/ 1708م.

كنت وفدت عقب الفتح بقليل على العالم العلامة، الدراكة الفهامة، الراوية النقاد، سراج للتحقيق الوقاد، منهل العلوم الأصفى، أبي عبد الله السيد محمد المصطفى القلعي فوجدته يسكن بأهله بيوت الشعر قرب غابة في رأس جبل يأوي إليهم ليلاً ونهاراً ويظل بالنهار في داره ومسجده يطالع كتبه ويقري طلبته فسألته عن ذاك فقال كنا على هذه الحالة على عهد النصارى خوفاً فإننا كنا لا نأمن في الدور من أن يصكونا ليلاً فخرجنا لبيوت الشعر ليسهل لنا الفرار لغابة الجبل فنمتنع منهم، فانظر إلى أين بلغ بالمسلمين خوف أولئك الطواغيت ولا يعرف حلاوة الإيمان إلا من ذاق الخوف وأخبرني أيضاً المرابط الخير أبو الحسن السيد علي بن حسون العبدلي أنهم كانوا لا يهنأ لهم في بلادهم منام إلا إذا جعلوا من يحرسهم ومهما قام أحد تجده بإغارة النصارى عليهم ويصرخ في نومه من شدة خوفهم فالحمد لله الذي أذهب عنا روعهم ببركة هذه الدولة الميمونة.

15 . جهود الداي شعبان في فتح وهران:

وفي آخر القرن الحادي عشر حاصرها العالم الفقيه، الشجاع الوحيد، السيد شعبان[1] باي أحد الأتراك الأنجاد صاحب أيام مازونة وغيرها من شرقي المغرب الأوسط فامتنعت عليه وشمست أي لم تنقد له من شمست الدابة إذا أبت الانقياد وقد دارت بينه وبين الكفرة حروب يشيب منها الرضيع والكثرة اليوم الذي استشهد فيه فزحفوا له في زهاء أربعة آلاف أكثرهم رجالة وهو في أكثر من ألف كأنهم خيل فاقتتلوا قبلة برج العين قتالاً شديداً ثم هزمهم وهو

(1) الباي شعبان الزناقي: تولى أمور بايليك الغرب 1090هـ ـ 1679م، وقد استشهد كما هو وارد في المخطوط عام 1098هـ ـ 1686م.

أمام جيشه المنصور كالأسد حتى رماه رجل من العرب الداخلين في سلك الكفر فقتله عام ثمانية وتسعين وألف رحمه الله.

وفي اثني عشر ومائة وألف قدمها إسماعيل سلطان المغرب[1] الذي دوخ الأقطار، وخلد الآثار، بعساكر سوس وما دونها، وحط كلكله عليها عازماً على النزال بكسر النون إلى الحرب سمي بذلك لأنهم كانوا ينزلون على دوابهم لأجل القتال، ولما صعد المائدة السلطان المذكور ونظر لوهران نظر ليث القريسة إلى الفريسة وعاين أحكامها ومنعتها عوّل على الرحيل، وقال هذه أفعة تحت صخرة تضر غيرها ولا يضرها غيرها وأراد بالصخرة برج مرجاجو ولما سمع الأعراب المظاهرون لها بقدومه انحازوا لها ولما أقلع عنها رجعوا وتلك عادتهم.

وسبب غزوه لهذه الأرض مراراً غضبته على المسلمين المظاهرين للكفرة.

16 . فتح وهران على يد مصطفى بوشلاغم:

ثم قدمها الباي سيدي مصطفى بن يوسف أبو الشلاغم[2] صاحب إيالة

---

(1) مولاي اسماعيل سلطان الدولة العلوية (1083 ـ 1672م/ 1140هـ ـ 1727)، خلف أخاه مولاي الرشيد ونجح في اخضاع الأقاليم وتأسيس جيش منظم (عبيد البخاري)، حاول تشجيع الاقتصاد وربط علاقات ثنائية مع الدول الخارجية ولاسيما مع الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، اشتهر بمظاهر الأبهة وبالمنشآت العمرانية مثل إنشاء مدينة مكناس، اصطدمت مشاريعه التوسعية بقوة الجزائر الحربية، فاضطر إلى التخلي عنها بعد انهزامه مرتين الأولى سنة 1694 على يد الداي شعبان والثانية سنة 1703 عند جديوية على يد الداي مصطفى، وقد تشتت جموعه في هذه المرة الأخيرة بنواحي آرزيو فعرف ذلك المكان بزبوج أو غابة مولاي إسماعيل.

(2) الباي مصطفى بن يوسف بوشلاغم المسراتي: تولى شؤون بايليك الغرب (1686 ـ 1733)، واتخذ مكان إقامته مدينة مازونة، انصبت جهوده على محاربة الإسبان بوهران، =

مازونة وتلمسان وبعث له السيد محمد بكداش[1] الباشة رحمه الله الجنود براً وبحراً وخيموا على أرجائها سهلاً ووعراً، وانتدب للجهاد الجم الغفير، والجمع الكثير، رغبة في جنة المأوى ورهبة من نار السعير، ونزلوا مرسى أرزيو فكانت الجيوش تنزل فيها ويأتون لوهران من البر ولا يمكنه حصرها من جهة البحر لإحالة مراكب الكفرة بينهم وبينها مع زيادة شدة برج المرسى، وقد شوهد من هذا الباي رحمه الله في تلك الحروب أمور عجيبة وحملات غريبة، ظهرت فيها شجاعته وكفايته ومازالت جيوش المسلمين تحارب وهران وقتال منها وتراوحها وتصاحبها بالقتال وتفاديها حتى فتحوها عنوة وقهراً وذلك سنة تسع عشرة من القرن الثاني عشر[2] بعد إقامة النصارى بها فقط وهم الراء بمائتين والحاء بخمسة فمدة إقامتهم بها مائتا سنة وخمس سنين.

ثم عاد لوهران الكفرة بعد عشرين من السنين وأربعة فمجموع ذلك أربعة وعشرون سنة فتلك مدة إقامة المسلمين بها في هذا الفتح فكان خروجهم منها سنة ثلاث وأربعين بعد مائة[3] وألف ودخلها الكفرة عنوة وذلك بعد موت

وتمكن من إسترجاع مدينة وهران سنة 1119هـ/ 1708م، وقد توفي بمستغانم حيث يوجد قبره مع بعض عقبه.

(1) بكداش: تولى منصب الداي سنة 1118هـ/ 1707م، عرف بالصلاح وفعل الخير، وجه كل همه لطرد الإسبان من وهران، وقد كللت جهوده بالنجاح، إذ تمكن باي الغرب مصطفى بوشلاغم بمعاضدة منه من استرجاعها للمرة الاولى عام 1708، لقي الداي بكداش حتفه على يد أحد الجنود المغامرين يعرف بدالي إبراهيم سنة 1122هـ/ 1710م.

(2) 1119هـ/ 1707م.

(3) 1143هـ/ 1730م.

الباشة بكداش رحمه الله وفي حياة الباي مصطفى أبي الشلاغم وقد انتقل إلى مستغانم بعد وقوع الحرب قتل فيه علي بن مسعود المحمودي الحشمي.

ودخول الكفرة لوهران في المرة الأولى كان على يد يهودي خدع المسلمين وغررهم ومكن النصارى منهم فنكبوهم قتلاً وسَبْياً وكان أولئك اليهود قد شرطوا على النصارى برج المرسى فلما تمكن النصارى من وهران أنزلوهم به وفاء بالعهد وإليهم ينسب برج اليهودي.

ولهؤلاء اليهود من الصولة على المسلمين ما لا يوصف فكانوا يخرجون لبني عامر لقبض الضريبة كالملوك ثم إن النصارى تخيلوا منهم بما كرهوا فطردوهم بعد ذلك مخافة أن يفعلوا بهم ما فعلوا بالمسلمين والملحمة كثرة القتل إنها أخذت في المرة الثانية بلا كبير ملحمة بل بقتال قليل وإنما اشتغل الناس بتشريد أولادهم ونسائهم ودخل في قلوبهم رعب كبير ففي المرة الأولى أخذوها بمالها وأهلها وفي الثانية نجت النفوس وعوجلوا على الأمتعة فتركوا أكثرها.

17 . استرجاع وهران في عهد الداي محمد بن عثمان:

ولما من الله على المسلمين عامة وعلى أهل المغرب الأوسط خاصة بفتح وهران وتطهيرها من أرجاس الأوثان على يد من قيضه الله لفتحها وأرشده لسعادتها ونجاحها الممتط منصبة الله برضاه ومشيد راية الإيمان وباسط مهد العدل والأمان الباي السيد محمد بن عثمان[1] اتحفه الله برضاه وجدد له اللطف

(1) محمد بن عثمان الكبير تولى شؤون بايليك الغرب سنة 1192هـ / 1778م، واشتهر بأعماله الحربية ومآثره العمرانية وقد تم على يده استرجاع وهران للمرة الأخيرة من يد الإسبان سنة 1206هـ / 1791م، ونقل مقر بايليك الغرب إليها، وقد وافته المنية ببلاد أصبح سنة
=

وأمضاه وقد تبسم في الثغر بذلك الفتح وجه الدين بعد عبوسه واستبدل النعيم والسرور بعد ضنكه وبوسه وقد باشر هذا الأمير حرب وهران بنفسه مدخراً ثواب ذلك لرمسه ولم يكن إلا في محلته المعهودة له في سائر الأيام وهي مائة فسطاط[1] ولم يمده محمد باشة بمدد يظهر منه في هذا الأمر النشاط.

وقد توفي هذا الباشا رحمه الله أثناء الحصار وتولى بعده حسن باشا فأقر الأمر على ما كان عليه ولم يزده حامية إلا ما كان لديه حتى فتح وهران الفتح المبين الذي أضاء به للإسلام الجبين لا كما وقع للسيد مصطفى بن يوسف في فتحها الأول فإن الباشا محمد باكداش رحمه الله وجه من الجزائر الجيوش لحربها وأمر عليهم من عزفت نجدته وظهرت في المضائق شجاعته رديفه ووزيره وصهره أوزن حسن رحم الله الجميع والأمير مصطفى على أهل محلته فقط والأمير محمد نصره الله عزل عن طريق عواقب وهران فلم يعتبرها ولم يلتفت للمرجفين من أنها ذات بأس شديد وجند عنيف وأن اعتناءه بها من قبل اللعب واللهو لكونها أمنع من عقاب الجو وإن عاقبة أمره معها عدم الظفر بها وقتل جنده بلا طائل ولا حصول نائل بل نبذ ذلك كله وراء ظهره ولم يعمل إلا برأيه وأمره ولم يستشر أحداً في ذلك خوفاً من تثبيطه وعدم تنشيطه لما فيه من رشده ونجحه سوى سيفه ورمحه ومشاورته لهما مجاز عن المساعدة والإسعاف ففتحها ﷺ في اليوم الخامس من رجب الفرد ضحى يوم الإثنين سنة ست من القرن الثالث عشر[2] فإقامة الكفار بها في هذه المرة فقط كمج الكاف بعشرين والميم

= 1213هـ/ 1799م.

(1) خيمة.

(2) 1206هـ/ 1791م، وقد بدأ انسحاب الإسبان من وهران يوم 17 ديسمبر 1791 واكتمل =

بأربعين والجيم بثلاثة مجموع ذلك ثلاث وستون سنة.

وابتداء المغرب من البحر المحيط المسمى بالبحر الأخضر ويسمى ببحر الظلمة أيضاً لأنه تقيد فيه الأضواء واذهب مشرقاً إلى بحر القلزوم والسويس فيدخل فيه مصر والشام قلت وهو الذي يأتي على اتحاد الدية والميقات والعرف الجاري أنه من طرابلس لأنه الذي كان فيه القديم ديار البربر ومساكنهم ونحوه لابن خلدون وهو أول المغرب الأدنى إلى بجاية والمغرب الأقصى من وجدة إلى آسفي حاضرة البحر المحيط والوسط ما بينهما وفي الخفاجي على الشفا أن ابتداء المغرب من مدينة وجدة من جهة الشمال البحر الرومي المتفرع عن هذا البحر المحيط فيخرج من بين طنجة وطريف وعرض خروجه ثمانية أميال وكانت هناك قنطرة ركبها ماء البحر وحده من جهة الجنوب الرمال الحاجزة بين السودان والبربر، وقاعدة المغرب الأقصى فاس وقاعدة المغرب الأوسط تلمسان وقاعدة المغرب الأدنى تونس وطرابلس وأعظم أنهار المغرب الأقصى وادي أم الربيع منبعه من جبال درن وينصب في البحر المحيط ونهر المغرب الأوسط الشلف ونهر إفريقية مجردة.

وبنو تيجين هؤلاء أصلهم من قبائل بني يادين أحد شعوب زناتة انظر ابن خلدون وقد رأيت للشيخ أبي مهدي عيسى بن موسى الرانداري[1] ثم التجاني أنهم من نسل العباس بن مرداس السلمي نسبة لسليم أحد قبائل مضر بن فزار بن معد بن عدنان.

وأصل أرضهم أنها رواصل ثم صاروا من جبل راشد إلى جبل دراك قال

بدخول الباي محمد الكبير إليها يوم 22 فبراير 1792.

(1) أبو مهدي عيسى بن موسى التوجيني عالم شهير ترك العديد من التآليف يوجد ضريحه بوادي الطاغية بالقرب من مدينة معسكر.

ابن خلدون ولما اقتسم بنو يادين المغرب الأوسط كان قسم بني تبين من ذلك من قلعة سعيد بالمغرب إلى المدينة بالمشرق ومن علماء توجين شارح الشفا والمغامرات والشيخ عيسى المتقدم والشيخ أحمد بن محمد وابنه الشيخ عبد الله وابن ابنه الشيخ أبو زيد دفين البطحاء من أرض المحال المعاصر للباي شعبان.

18 . ذكر بعض الأخبار عن تلمسان:

وأول من اختط تلمسان القديمة بنوا يفرن إحدى قبائل زناتة قبل الإسلام بكثير وأما الجديدة المسكونة الآن فاختطها أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين وهو الذي أردنا بالجدار لا أنا أردنا به المذكور في القرآن وإن كان قولاً مال إليه أبو حيان وذكر ذلك في شعر هجا به تلمسان حيث قال:

املأ تلمسان ذماً إن حللت به	حول الجدار وما قد حاوت الجُدُرُ
قوم إذا استطعموا لم يطعموا أحد	أأنتَ خير أم موسى أم الخَضِرُ

فقد قال ابن خلدون القول بأن تلمسان هي الجدار المذكور في القرآن وأنه بناحية قادير بعيد.

وقال القسطلاني في سورة الكهف قيل إن القرية انطاكية وقد استمرت لبني يفرن إلى زمان الإسلام ففتحها عقبة بن نافع الفهري أواسط القرن الأوسط القرن الأول ثم استولى عليها مولاي إدريس الأكبر واختط مسجدها الأعظم الذي بقادير ولما ذهب للمغرب خلف فيها ابن أخيه مولاي محمد بن سليمان ناجياً من وقعة فخ كانت بنواحي مكة بين العلويين والعباسيين واتصل ملكه بها واستمر ملك محمد بها إلى أن استولى عليها صنهاجة البلكانية ملوك العمالة الشرقية. وأخرجها من أيديهم جابر بن يوسف العبدوادي وقد غزاها

يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ففتحها وقتل من بها من مغراوة وبن يفرن وقتل من رؤوسها العباس بن بختي المغراوي وولي محمد ابن تمر واختط بها المدينة المسكونة بمكان محلته وبقيت بيد لمتونة إلى أن أخذها منهم عبد المؤمن بن علي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة[1] واستمرت في إيالة بنيه إلى أن أخذها منهم يغمراسن بن زيان سنة إحدى وثلاثين وستمائة[2] واستمرت لهم إلى أن حاصروها أبو الحسن المريني بها سنة سبع وثلاثين وسبعمائة[3].

ولما نكب بالقيروان سنة تسع وأربعين[4] عاود ملكها بنو زيان ثم أخذها منهم ولده أبو عنان سنة أربع وخمسين وكان قبل ذلك موسى بن صالح المشهور بالكهانة يقول تلمسان تحرث وقد وقع ذلك في هذه النكبة فحرثها رجل أعور على ثورين أسودين وذلك لتخريب بني مرين لها وموسى هذا من برابرة المشتل وبعضهم يقول هو ولي ثم عاود بنو زيان ملكها بعد ملك أبي عنان سنة ست وخمسين واستمروا بها إلى أن أزال ملكهم الأتراك سنة ست وخمسين وتسعمائة[5] فمدة ملك بني زيان لها ثلاثمائة سنة وستة وعشرون سنة بإدخال مدتي بني مرين بها وقد ألف الحافظ التنسي[6] في شرف بني زيان وقد ذكر ابن

---

(1) 539هـ/ 1144م.

(2) 631هـ/ 1233م.

(3) 737هـ/ 1336م.

(4) إشارة إلى هزيمة أبي الحسن المديني أمام القبائل العربية بنواحي القيروان سنة 749هـ/ 1348م.

(5) 956هـ/ 1549م.

(6) هو محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي المعروف بالحافظ، توفي عام 899هـ/ 1494م بتلمسان، اشتهر بكتابه نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، راجع ما يخص =

خلدون أن يغمراسن كان يرفع نسبه إلى إدريس ثم يقول إن هذا صحيحاً نفعنا في الأخر وأما الدنيا قبلناها بأسيافنا.

19 . ذكر اكتشاف البارود واستعماله في الحرب:

والبارود شيء يتخذ بالمعالجة ولم يكن في الدهر الأول وإنما أحدث في نيف وستين وسبعمائة وذلك أن حكيماً يعالج صنعة الكيمياء فعالج ذلك ففرقع له فأعجبه فاتخذه آلة للحرب فعمل لذلك الكفرة المدافع والبنادق فصار في هذا الزمان هو أعظم آلة الحرب وبذلك بطل المنجنيق وهو آلة من عمل المتقدمين بصك الحجارة العظيمة وأول من ضرب بها في الحرب جذيمة الأبرش فلا ينافي أن أول من عملها نمرود إبراهيم لأجل دفع الخليل بها في النار.

فائدة: ذكر الشيخ عبد القادر البغدادي في حاشيته على شرح ابن هشام لبانت سعاد أن عدي بن حاتم ﷺ قال عند النبي ﷺ أشعر الناس امرؤ القيس وأكرم الناس أبي وأفرس الناس عمر بن معدي كرب الزبيدي فقال له ﷺ بل أكرم الناس وأفرس الناس علي بن أبي طالب وأشعر الناس الخنساء.

أعجوبة: ذكر العلامة الشربيني في شرح المقامات أن السليك بن سلكة التميمي وثب وثبة فخطى فيها عشرين خطوة وقال في موضع آخر جرت وراءه خيل بكر بن وائل أكثر من يوم فغلبها.

20 . عقبة بن نافع وقصة استشهاده:

وقد زحف قيس بن زهير البلوي عامل عبد الملك بن مروان على إفريقية

تاريخ تلمسان، نشر وتحقيق محمد بو عياد. الجزائر، 1985.

لكسيلة ابن سيطلة أمير البربر فتقاتل الفريقان قتالاً شديداً وذلك سنة سبع وستين[1] ثم إن كسيلة قتل وانهزم البربر وتبعهم الصحابة والتابعون فمنها ذل الله البربر وحصدت شوكتهم بموت فرسانهم وذلك أخذا بثأر عقبة بن نافع الفهري فاتح المغرب، فإنها لما دوخ قبائل البربر وزناتة إلى البحر المحيط وقفل منه فسرح الناس وبقي في ثلاثمائة وثمانية من الصحابة والتابعين وكسيلة أسيراً عنده فأرسل إلى قومه لما رأى خفة المسلمين فلقوا عقبة بالزاب ومعه أبو المهاجر دينار[2] ومن معهما رضي الله عن الجميع ودفنوا هناك، وبنيت قرية عند أضرحتهم سميت بسيدي عقبة وبني على ضريحه مسجد تقام عليه صلاة الجمعة إلى الآن.

21. الإشارة إلى أصل كل من الفرنجة والإسبان:

واعلم أن الفرانسة[3] فرقة مستقلة وهم المسمّون بالفرنج وبالنصارى وأما السبنيول[4] فهم فرقة من الروم والروم بنو الأصفر والكل من أولاد يافث فهم إخوة أعني الروم والفرانسيس كما في كتب التاريخ وابن خلدون ونص عجائب الأخبار أن الفرانسيس نسبة إلى بلدة إفرانسة وهي قاعدتهم القديمة وتقرأ بالجيم بدل السين أيضاً كما في ابن خلدون ولذا كانوا يسمون في القديم بالفرنج وهم

---

(1) 67هـ/ 686م.

(2) استشهد المجاهد الفاتح في معركة تهودة شرق بسكرة بإزاء سُفُوح جبال أوراس (سنة 63هـ/ 683م).

(3) الفرنسيون أي الفرنجة.

(4) السبنيول أي الإسبان المنحدرين من القوط، وقد وقع المؤلف في خلط وأخطاء في نسبة نسبة أمم النصارى لاعتماده في ذلك على المصادر التقليدية.

من أولاد يافث وأرضهم بين الأندلس وخليج القسطنطينية يجاورون الروم من المشرق والصقالبة من المغرب وكانت الروم غلبتهم قديماً كغيرهم من الأمم وعنهم أخذوا دين النصرانية ونصارى قال شهاب الدين الخفاجي في شرح الشفا نسبة إلى نصرة مدينة عيسى عليه السلام وانظر وجه التسمية في الأصل وأصل السبنيول.

وأما السبنيول نسبة إلى إسبانية بقطع الهمزة مدينتهم القديمة وقاعدة ملكهم القديمة ولا شك أن هؤلاء الإسبانيين فرقة من الروم لا من الفرنج بدليل أن كتاب النبي ﷺ الذي كتبه هرقل ملك الروم يدعوه إلى الإسلام هو الآن عند ملك طليطلة يقال إن طاغية الروم أراه لابن الصائغ لما أوفده عليه سلطان مصر وسمعت أنه عند النامسة المجاورين للموسك انظر الشهاب الخفاجي وقدم لنا أن هؤلاء الإسبانيين من الروم والروم بنو الأصفر وهم من أولاد يافث إخوة الفرنج انتهى ما وجد مفيداً بخط مؤلفه المذكور بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه الجميل وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام.

المصادر والمراجع المعتمدة في التحقيق

(3) الراشدي ، أحمد بن محمد بن سحنون (ت 1796م) ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، قسنطينة، 1973.

(10) المدني ، أحمد توفيق (ت 1983م) ، محمد عثمان باشا داي الجزائر (1766 ـ 1791)، الجزائر 1938.

(9) الجزائري ، محمد بن عبد القادر (ت 1913م) ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق الدكتور ممدوح حقي. ط 2 ـ بيروت دار اليقضة العربية 1964.

(12) الجيلالي ، عبد الرحمن (ت 1010م) ، تاريخ الجزائر العام ط 4 بيروت، دار الثقافة، ج 2، 1980.

(6) المشرفي ، عبد القادر (ت 1878م) ، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر. تحقيق محمد بن عبد الكريم ـ بيروت ـ دار مكتبة الحياة ـ بدون تاريخ.

(2) ابن ميمون الجزائري، محمد (ت 1746م) ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر 1971.

(7) المزاري، الآغا اسماعيل بن عودة (ت 1897)، طلوع سعد السعود في أخبار وهران ومخزنها الأسود، تنسيق ودراسة يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي بيروت 1990 (2 ج).

(8) الزياني ، محمد بن يوسف (ت 1902م) ، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الجزائر 1979.

(5) بن عبد القادر ، مسلم (ت 1832م) ، خاتمة أنيس الغريب والمسافر تحقيق وتقديم رابح بونار، الجزائر 1974.

(11) بوعزيز ، يحيى (ـ 2007م) ، مدن تاريخية، وهران، الجزائر 1985.

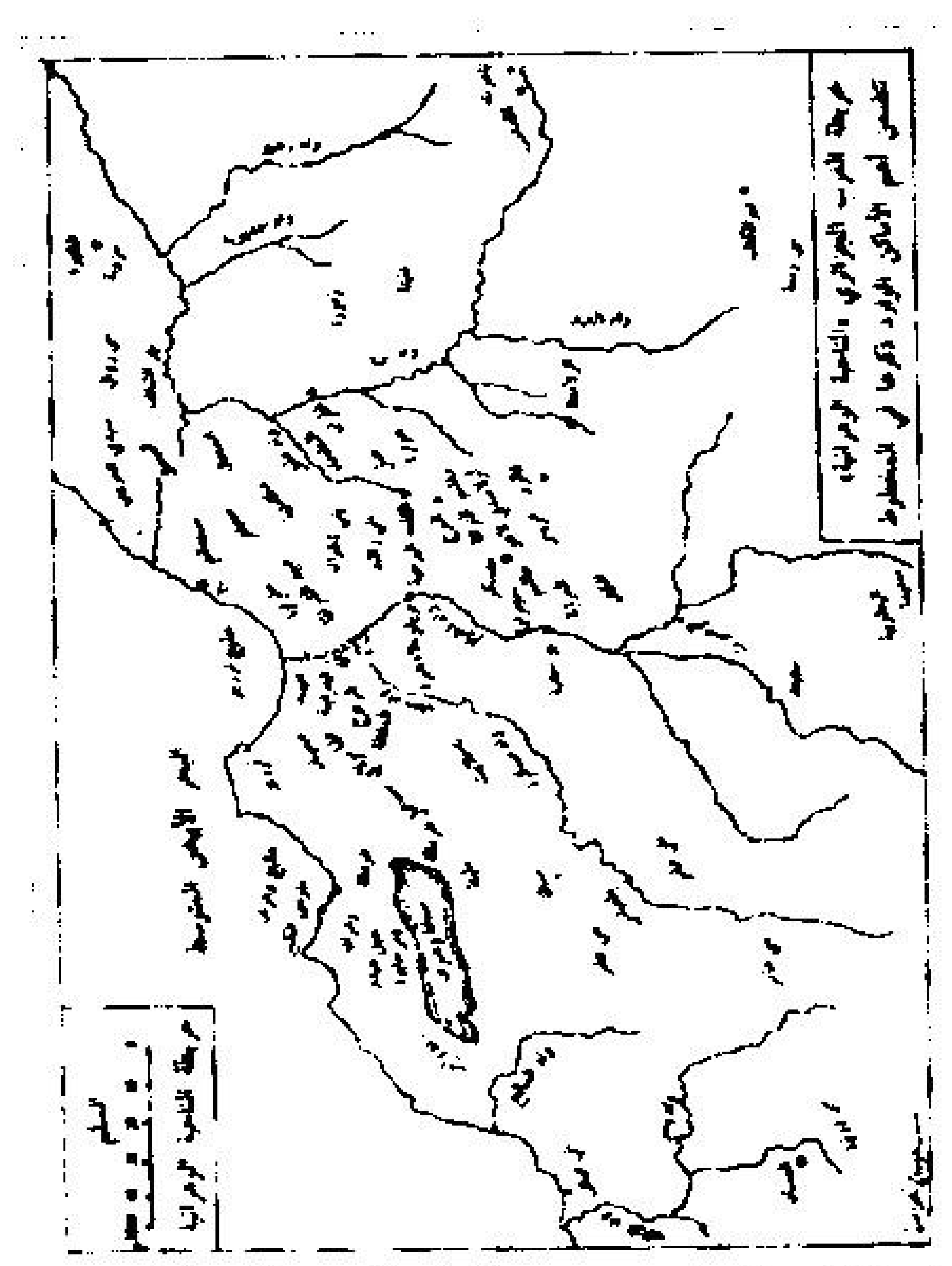
(14) سعيدوني ، ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافي). دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ترجمة الشقراني: ص ص 543 ـ 549.

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن (ت 1406م)، كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة بيروت، 59 ـ 1969 (7ج).

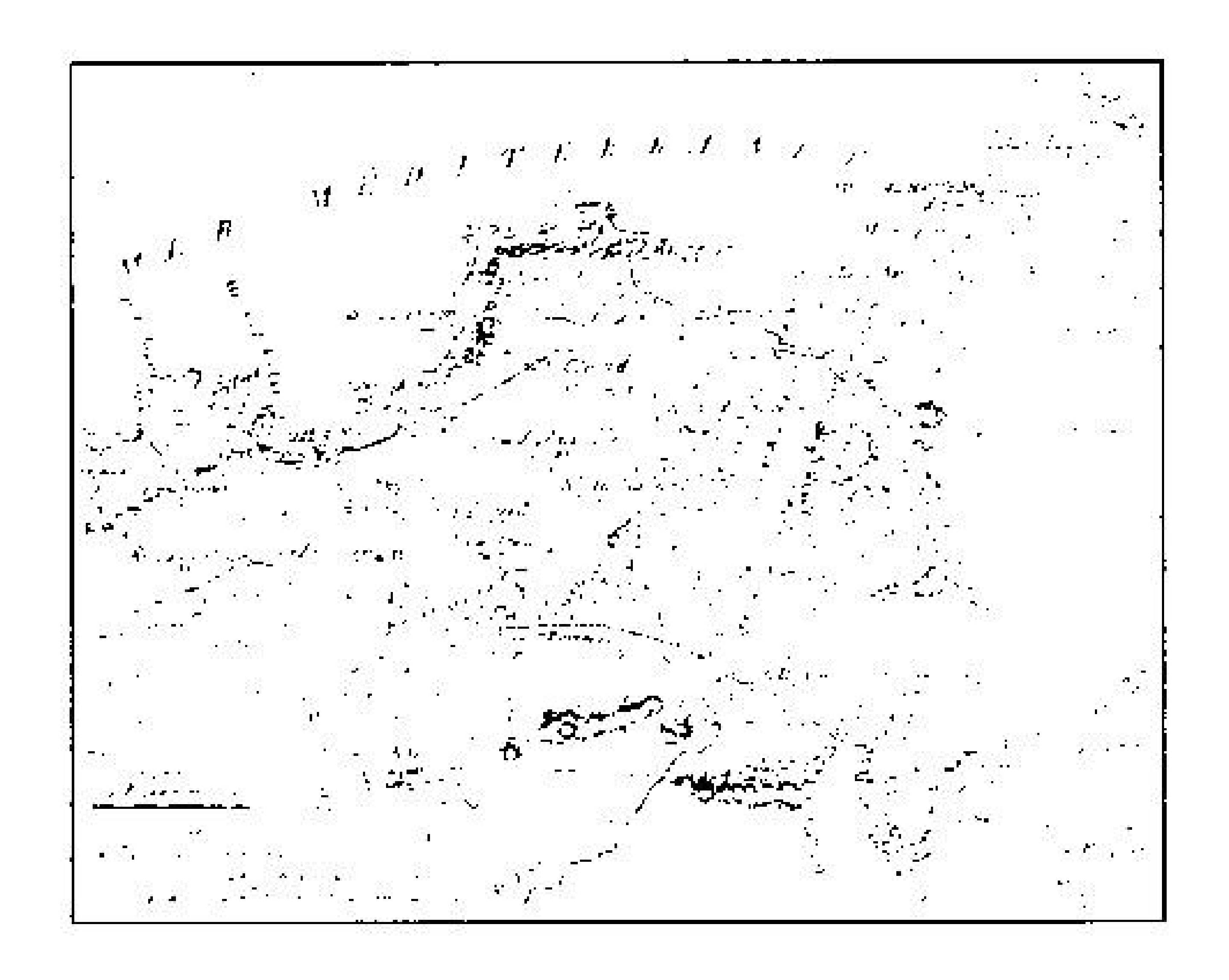
(13) سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، الجزء السابع 1830 ـ 1954، ص ص 365 ـ 369.

(4) أبوراس، محمد بن أحمد الناصري (ت 1823)، عجائب الأسفار والطائف الأخبار مخطوطة المكتبة الوطنية الجزائرية (رقم 1633)، نُشر الكتاب مؤخرًا من طرف محمد غالم، إصدارات المركز الوطني للبحث والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (كراسك) وهران ج1: 2005، ج2 2008.

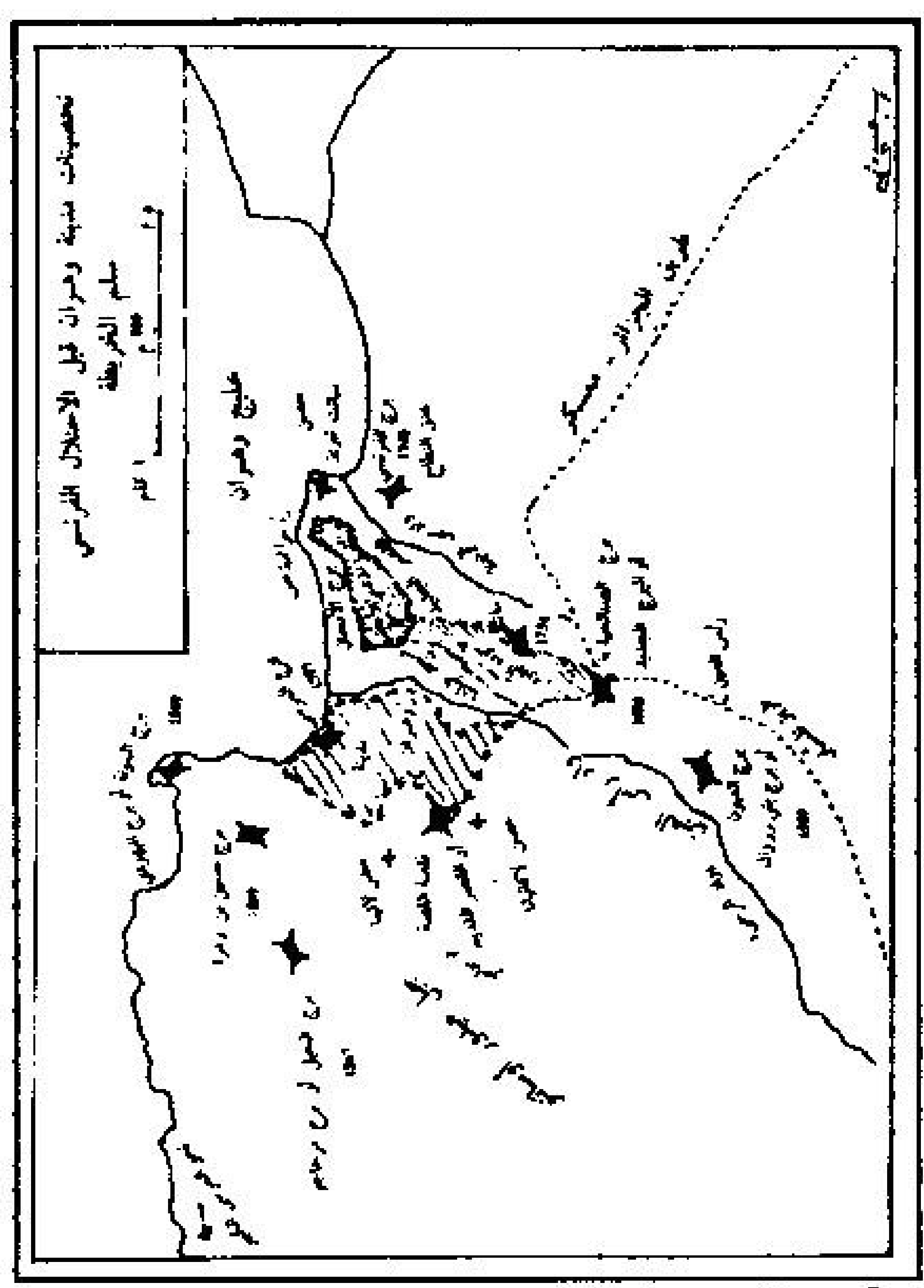

الصور والخرائط



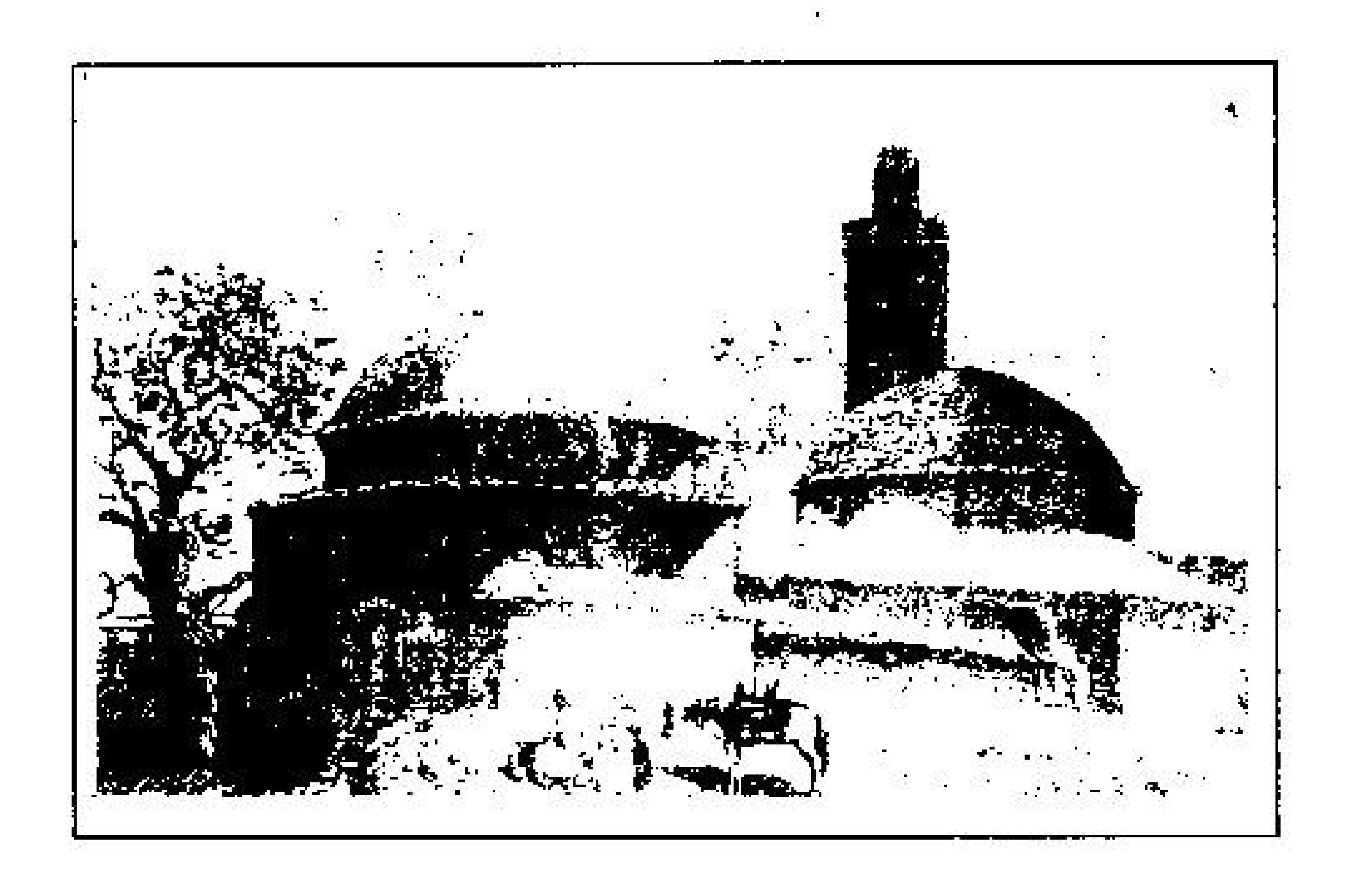
1. خريطة الغرب الجزائري مع تحديد الأماكن التي ورد ذكرها في كتاب "القول الأوسط" لعبد الرحمن الشقراني



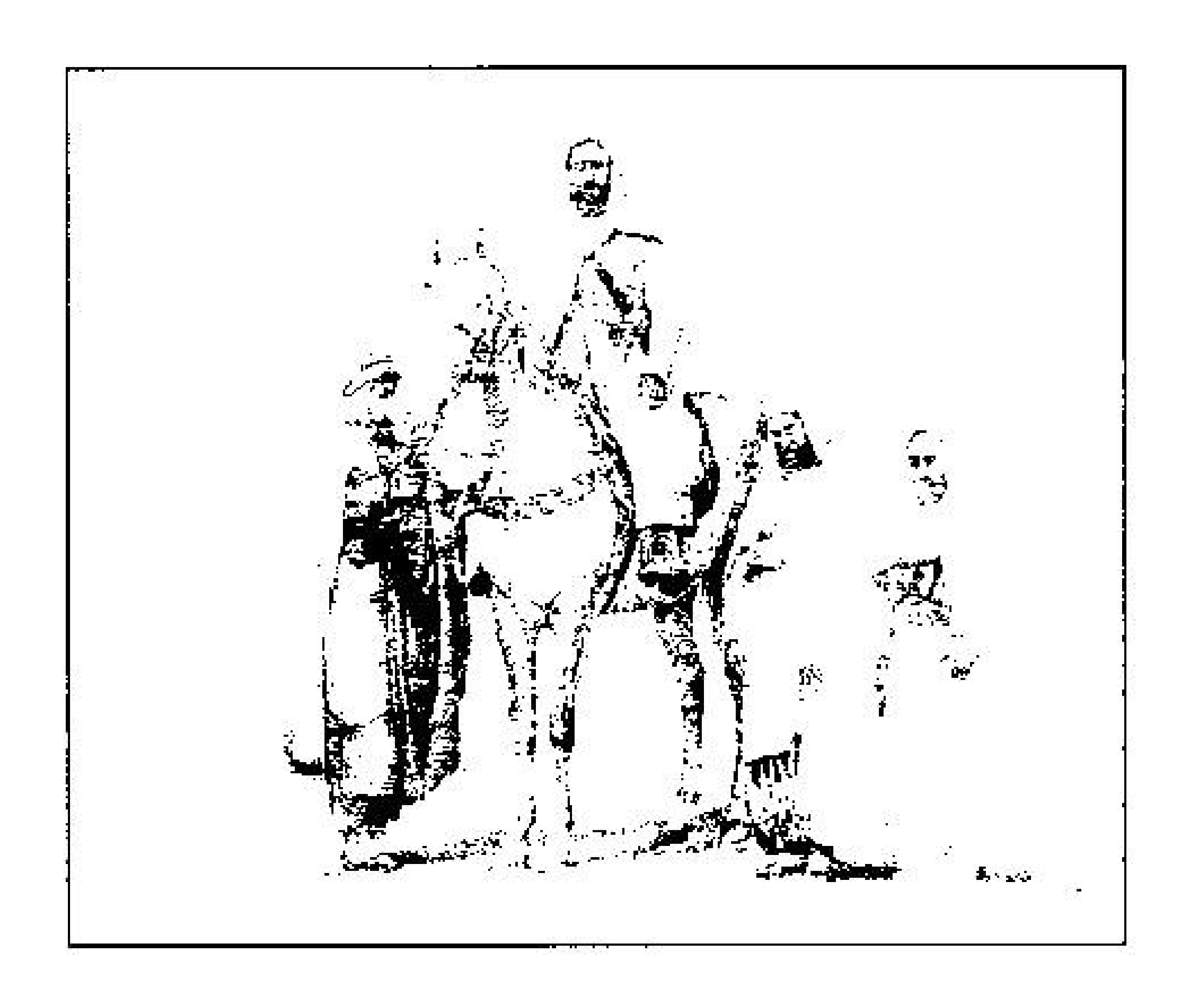
2. خريطة الناحية الوهرانية
تعود إلى فترة جهاد الأمير عبد القادر (1832 ـ 1848)



3. مخطط تحصينات مدينة وهران من وضع ناصر الدين سعيدوني.



4. صورة تعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر لمسجد العين البيضاء القريب من المكان الذي وُلد فيه الأمير عبد القادر.



5. الأمير عبد القادر بصحبة مرافقيه وهو يمتطي جواده.



6. الأمير عبد القادر في لقائه بالجنرال ماكماهون (Mac–Mahon) الذي تولى رئاسة الجمهورية الفرنسية فيما بعد (أخذت الصورة سنة 1867، وهي ضمن ودائع المكتبة الوطنية بباريس).



7. صور مصطفى بن إسماعيل قائد المخزن واحد خصوم الأمير عبد القادر تعاون مع الفرنسيين وتولي قيادة الحامية الفرنسية بتلمسان.



8. المزاري أحد شيوخ قبائل المخزن المعادين للأمير عبد القادر.



9. سد سيق أثناء بنائه والذي تهدم فيما بعد، وورد وصف له في مخطوط القول الأوسط

Présentation du Manuscrit :
«El Kaul El Aoussat Fi Akhbar El Maghreb El Aousssat»
De Hadj Ahmed Ben Abderrahmene Echagrani.

Le manuscrtit, que nous nous proposons de présenter au lecteur comprend 29 pages grand format, écrites en caractères maghrébins, clairement lisibles, ornementés dans certains passages avec de l'encre rouge.

Comme il est mentionné dans la première page, ce manuscrit fut reporté par un calligraphe à partir d'une copie originale de l'auteur Hadj Ahmed Ben Abderrahmane Echagrani au sujet duquel nulle information de valeur n'est disponible. En effet, malgré les recherches que nous avons entreprises sur la base de divers écrits historiques et les contacts que nous avons eu avec des chercheurs qui pouvaient apparemment nous aider dans notre tâche tels Cheïkh El-Mehdi El-Bouadbali, nous n'avons pu éclaircir les péripéties de la vie de ce personnage, ni mettre en évidence sa personnalité et le type de culture dont il était imprégné. Tout ce dont on dispose ne dépasse guère deux paragraphes élaborés par Cheikh Mahamed Ben Youcef Ez Ziani auteur de «Dalil El Hairan Oua Aniss Essahran fi Akhbar Madinat Wahran»; Celui-ci cite dans un passage sur la prise d'Oran et un autre sur les oueds du Maghreb, l'auteur du présent manuscrit.

Toutefois, à partir des informations en notre possession, on peut dire que Hadj Ben Abderrahmen appartenait à la tribu des Beni Chagran qui habitait la région entre Mostaganem et Ghriss; il vécut une partie de sa vie à Mascara, pendant la seconde moitié du 13ème siècle de l'hégire (19ème siècle). Les événements de l'époque, caractérisés par les révoltes successives contre les colonisateurs françaiss ont influencé sa personnalité. On sait, par ailleurs, dans son manuscrit, qu'il a suivait des cours dans une medersa de la ville de mascara en 1253 / 1837.

La date de l'écriture du manuscrit fut passée sous silence par le calligraphe qui par ailleurs était très soigneux dans la reproduction du titre de l'ouvrage et du nom de son auteur. Mais

le fait que l'auteur évoque la mort de l'Emir Abderlkader en 1883, nous conduit à croire que l'ouvrage remonte aux années 1890.

L'objet du manuscrit paraît diffus, les divers événements que l'auteur vécut ou qu'il rapporta d'historiens antérieurs en témoignent.

Le récit commence par la révolution de Bouamama, à laquelle l'auteur n'accorde nullement le caractère militant. d'un point de vue personnel ne preposant pas sur des arguments objectifs. Il décrit Bouamama, comme un être assoifé de pouvoir, dénué de toute intélligence, qui contribua par sa maladroite action à l'expansion du pouvoir colonial dans les contrées du sud algérien. L'auteur compare ainsi Bouamama à des chefs d'insurrections non abouties tels Ech Charif Ed Darkaoui, le Cheïkh El-Tedjeni, Youcef El Khedeoui et tant d'autres : invitant à cet égard, le peuple à se résigner et à attendre le secours de Dieu. Par ailleurs, l'auteur évoque dans un élogieux récit la résistance de l'Emir Abdelkader et voit dans son arrêt des hostilités une action mûrement réfléchie vu les circonstances qui l'avaient imposé.

Après cela, l'auteur commence subitement à parler des calamités que connut la région oranaise à l'époque et de leurs conséquences socioéconomiques.

L'auteur ne manque pas de citer les groupements tribaux du Maghreb, se basant sur des écrits d' auteurs qui l'ont précédé tels Ibn Khaldoun et Abi Ras En Nassiri.

Parlant d'Oran. Il évoque sa fondation qu'il attribue au chef almoravide Youcef Ben Tachfine, il passe ensuite à l'Etat Almohade et à ces deux précurseurs El Mehdi Ben Toumert et Abd. El Moumen Ben Ali et ne manque pas de parler des Zianides et de Sidi El Houari, figure maraboutique importante de la ville d'Oran. Cette dernière au sujet de laquelle il cite les inscursions des Espagnols et leur conquête de la ville à l'aide de juifs. A la fin de son texte sur Oran l'auteur salut l'intrevention ottomane pour contrecarrer les attaques chrétiennes et il poursuit son manuscrit en mettant en évidence les frontières des trois Etats Maghrébins, leur capitales et leurs oueds tout en s'attardant sur la ville de Tlemcen et en introduisant des sujets divers tels l'histoire d'Okba Ibn Nafi et sa mosquée, pour terminer le

manuscrit sur les origines des Francais et des Espagnols et de leurs apellations.

Hormis la matière historique contenue dans le manuscrit, on notera du point de vue linguistique stylistique, la reprise des modèles traditionnels de dissertation répandus durant la première moitié du 19[ème] siècle dernier. En dépit d'une relative facilité linguistique et stylistique, le texte tombe par moments dans l'utilisation du vocabulaire de langue parlée; quoi qu'il en soit le style littéraire adopté par l'auteur reflète largement le niveau culturel de l'époque.

Par ailleurs, l'auteur témoigne de connaissances assez larges puisées de son éducation religieuse profonde et de ses lectures historiques; ceci apparaît notamment dans l'emploi de formules coraniques et de habiths dans son texte.

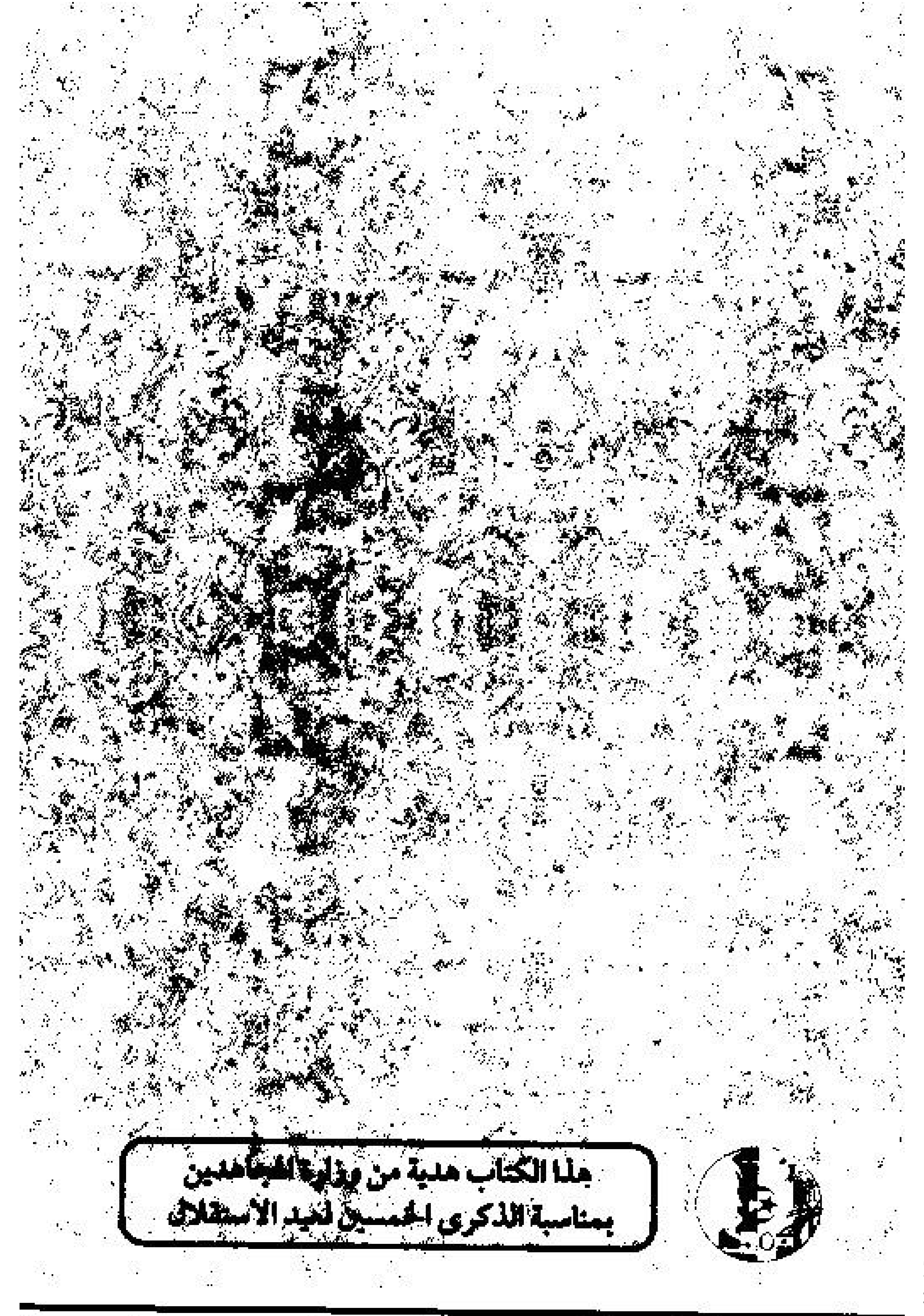
Du point de vue méthodique, l'auteur regroupe dans un ordre simple les événements qu'il vécut lui-même suivis d'informations sur l'histoire de l'Algérie à l'époque islamique. L'auteur néglige ainsi la subdivision de son texte en chapitres, ce qui aurait facilité la lecture, et dont nous proposons une esquisse dans cette brève présentation.

En ce qui concerne l'objectivité du discours, on remarque une certaine subjectivité de la part de l'auteur, ce qui apparaît dans ses attaques contre Bouamama et l'estime qu'il ne cache pas à propos de l'œuvre française en Algerie.

La valeur du manuscrit diffère selon les deux parties évoquées; une partie où l'auteur se contente d'une reprise stérile des relations d'auteurs antérieurs et une autre où il fait preuve d'un esprit novateur certain dans le sens où il met en évidence d'une part des personnalités qui se distinguèrent lors des premières phases de la colonisation française et d'autre part il rappelle certaines conjonctures et calamités naturelles. Il faut aussi noter sa prise de position envers Bouamama ainsi que son attitude face à la pression coloniale que subissait l'Algérie à l'époque.

En guise de conclusion, notons qu'en dépit des lacunes du manuscrit, nous devons le percevoir en tant qu'enréchissement certain de notre patrimoine culturel, base effective pour une redéfinition de la stratégie à mettre en œuvre pour la réécriture de notre histoire nationale.

الفهرس


هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين
بمناسبة الذكرى الخمسين لعيد الاستقلال